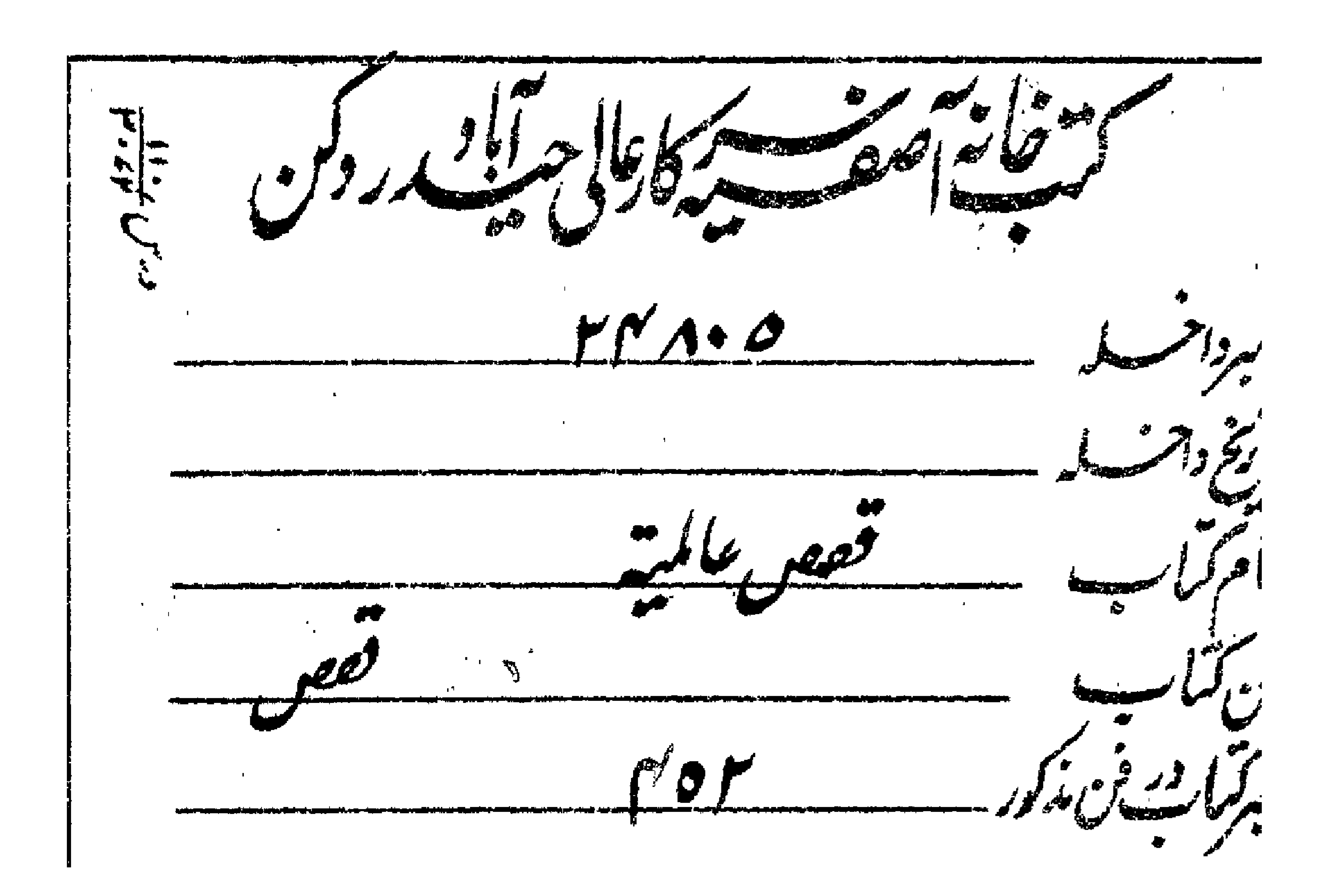



قصص عالمية
عنيت بنشره
دار الهلال بمصر
سنة ١٩٣٨

١٠
قصص عالمية

عنى بنشره

دار الهلال بمصر

سنة ١٩٣

أهذا هو الروج الذى كانت « دونا روزينا » تحلم به أيام شبابها ، وتفكر فيه وهى تشهد حفلات مصارعة الثيران ، وتعيش من أجله ، وتتهيأ لمقدمه ، وتفاخر به أترابها ، وتنتظر تحقيق السعادة المثلى على يده ؟ . . .

أهدا هو « الفونسو » الساحر الجميل ، صاحب الشعر الأسود المموج ، والبشرة الحارة السمراء ، والعينين السوداوين البراقتين ، والبدن الملىء ، والمنكب العريض ، والساعد المفتول ؟ . . .

لشد ما تبدل وأحاله الزواج رجلا آخر . كلا . بل هى حياة العروبة التى قضاها فى الملذات ، استفاقت بغتة وجرت خلفها الضعف والمرض ، ثم شرعت تنتقم منه وتقوض صرح شبابه ، وتدمر حياته الروحية تدميراً

لقد شحب لونه ، وغارت عيناه ، وهزل بدنه ، وجف ماء حيويته ، وكسا المرض صفحة وجهه صفرة قاتمة كتلك التى تبدو فى وجوه المسلولين

انه يشكو ألما فى كليتيه ، وألما فى معدته ، وآلاما مبرحة فى مفاصله ، وسواء أشوهد جالسا أم سائراً أم ممدداً على المقعدالمستطيل . فهو هو الرجل الواهن الهرم الخائر القوى الذى اعتصرت العابثات ربيعه ، ثم امتطنه ، وألقين به فى حضن الروحة هيكلا نخراً ، وشلواً كسيحا !

انه الآن مريض . انه طريح الفراش . انه يسعل ويمخط

ويرتعش كشيخ هرم ، ولما ينقض على زواجه بروزينا عام واحد اقترنت به وملء نفسها الرغبة فى الحياة والسعادة ، وسرعان ما أصبحت ممرضة له !

وها هو ذا الدواء ، وها هى ذى الأنابيب والحقن ، وها هو ذا كشف الحرارة ، وها هى ذى الحجرة المظلمة التى يرقد فيها الفونسو لم تغادرها روزينا منذ ثلاثة أشهر الا لتختلس النوم اختلاسا فى مخدعها الضيق الصامت الخانق الشبيه بقبر !

ثلاثة أشهر حرمت فيها روزينا كل راحة وكل سعادة وكل متعة ثلاثة أشهر أشعرتها بأن الفونسو قد خدعها وغرر بها وقدم اليها جسما فانيا وروحا هامدة وقلبا ميتا ، مقابل الشباب والصحة والبراءة والجمال ومختلف روائع النضرة والبكارة التي حملتها اليه !

فهو قد تزوج ليغلق كتاب حياته ، وهى قد تزوجت لتبدأ النظر فى هذا الكتاب

والحق أنها عاشت قرب أبويها حياة بيتية قروية محدودة الأفق ضيقة الفسحات ، فلما تزوجت رمقت الدنيا ببصرها ، وتطلعت الى ما تتطلع اليه كل فتاة ، ولكن الشقاء كان يتربص بها ، فبدل أن تنطلق من ربقة الأسر الى رحاب الحرية ، سجنت فى بيت استحال الى مستشفى وسط مدريد الزاهرة بشتى ألوان المرح واللهو والسرور فزوجها اليوم جلادها وهى فى هذا المنزل فريسه !

هو يسعل ويبصق وتساوره الحمى فيهذى ، وهى واقفة تجاهه تحدق اليه تارة وتنظر الى المرآة البعيدة تارة أخرى

ولو أن هذه المرآة لم تكن هنا لكان ذلك أجدى ، فوجهها المصقول يواجه روزينا فى كل لحظة بصورة بديعة الحسن تستثير احساسها ،

وتضرم شعلة التمرد فى صدرها ، وتهز أعصابها المتوترة هزاً !

امرأة ممشوقة القد كالغصن ، مديدة القامة ، عريضة الصدر ، راسخة البنيان ، تفيض حركة ونشاطا وقوة ، ويتمثل شبابها القروى السليم فى وجه طلق مورد ، وخدين ممتلئين ، وشفتين حمراوين ، وشعر اسود مجعد غزير

هذه هى روزينا . وذاك هو الفونسو !

فهل بين هذين المخلوقين أية رابطة ، وكيف اجتمعا تحت سقف واحد ، وما هو ذلك القدر الذى عبث بروزينا ، وهل هى لا تستطيع مقاومته والزامه حد الانصاف والعدل ؟

انها تحاول . . انها تجرب . . انها تريد أن تعيش !

لقد ركب الشيطان رأسها ، وأثار فيها حواسها ، وأيقظ مطالب بدنها ، وألقى فى روعها أن زوجها لن يشفى ، وأن الموت واقف له بالمرصاد ، ثم زين لها فى لحظة من تلك اللحظات التى يفقد فيها المرء رشده ، ويستسلم لأحلامه وآماله وهواجسه ، ان هناك حبا آخر وحياة أخرى ووسيلة مأمونة للخلاص ! .

وأصاخت روزينا السمع لذلك النداء السرى المتصاعد من صميم حواسها الظمأى ، وابتسمت للشيطان ، ومكنته من خيالها ، وانسلت فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، ودخلت غرفة زوجها وأخذت كعادتها تبدل فى الأرقام ، فى درجات الحرارة التى يجب أن تدون بأمانة ودقة وانتظام فى الكشف الذى يبنى عليه الطبيب علاجه

والواقع أن روزينا كانت لا تكتفى بهذا العمل الاجرامى ، بل كانت تفسد علاج زوجها أيضا ، ولا تعطيه الدواء فى مواقيته ، وتزيد كمياته فى بعض الأحيان وتنقصها أحيانا أخرى ، وتلوح للمريض بالطعام

لحوم عليه فتهيج غريزة الشره المتأصلة فيه ، ثم تدفع اليه بالطعام متنصلة من كل مسئولية ، متظاهرة بالشفقة على زوجها ، مقدرة أن الغذاء قد ينشطه ويقويه ويعاونه على مكافحة المرض !

وهكذا أرادت روزينا أن تتغفل الطبيب وتشوش فى عينه سير المرض ، وتقتل زوجها دون ما حاجة لارتكاب جريمة واضحة المعالم صارخة المظهر تفضحها وتهدم مستقبلها وتحول بينها وبين وبين الاقتران بحبيبها ارماندو صديق زوجها الحميم والشاب الأوحد الذى دخل بيتها منذ أصبحت امرأة الفونسو !

وكان الفونسو يغط فى نومه ، وعضلات وجهه منقبضة ، والصفرة القاتمة المنفرة تغمر محياه ، فتنهدت روزينا ، وعضت على شفتها السفلى ، وارتمت على مقعد بجوار فراش المريض وأطلقت لخواطرها العنان :

ألم يكن فى مقدورها أن تحب وتهنأ وتعيش دون أن تسلك هذا المسلك المحفوف بالمخاطر ، دون أن تمضى فى هذا الطريق الاجرامى ، دون أن تحاول التخلص من زوجها بقتله ؟ . . .

أجل . كان فى وسع ارماندو أن يجعل منها خليلته ، ولكنه لا يريد . . . لا يريد أن يشاطره إياها أحد . . . لا يريد أن يتقاسمها مع أى إنسان . . . يريدها لنفسه فقط ولا يريدها الا مقطوعة الصلة بكل علاقة وكل ماض وكل رجل

هذا هو أسلوب ارماندو فى حبها . وهو الذى أثار أعصابها ، وألهب عوامل الثورة الكامنة فيها ، ودفع بها كارهة الى الرغبة فى التخلص من زوجها !

وتمثل لها ارماندو بعينيه الناعستين الحالمتين ، وشبابه الغض ورأسه الشامخ وذراعه القوية الخليقة بأن تضم امرأة ، فارتعشت

وألقت على المريض نظرة مشفقة متهكمة ثم هزت كتفيها وألقت بكشف الحرارة جانباً وابتسمت وغادرت الحجرة

* * *

ولم تذق روزينا فى تلك الليلة طعم النوم . خيل اليها أنها قد أفلحت فى خطتها ، وأنها نجحت فى التغرير بالطبيب ، وأن مرض زوجها يستفحل ، وأن الموت وشيك الانقضاض عليه وإنقاذها منه ، فارتاحت نفسها واستولى عليها شبه فرح جنونى ولم تستطع لفرط حبها ارماندو كتمان هذا الفرح وكتمان الحقيقة عنه ، فعقدت عزمها على أن تصارحه بكل شىء صباح الغد

وعندئذ ران السكرى على عينى روزينا واستطاعت أن تنام قبيل الفجر !

* * *

وكان ارماندو يحب روزينا بقدر ما يشفق على صديقه الفونسو . كان يحبها لجمالها وفتوتها ولما حاق بها من ظلم ، ولكنه كان يكره الخديعة والنفاق ولا يستطيع أن يتذوق لذة الحب مسمما بالغيرة والخوف والاضطراب الدائم والقلق اليومى البغيض . فلما صارحته روزينا بما أقدمت عليه ، استنكر بدل أن يوافق ، واستهول وحذر وانتهر وزجر بدل أن يفرح ويغتبط ، ثم تراجع وأعرض وانطوى على نفسه وخفف من زياراته كأنما هو خشى أن تفتضح الجريمة يوما فيصيبه رشاشها

وكان الجبن يومض فى حدقة عينه وهو يتكلم ، وكان الرعب يمسخ تقاطيعه ويرجف أعضاءه وينكر صوته ، فأحست روزينا على دهش منها أن الرجلين متشابهان ، أن زوجها ضعيف أمام المرض

وحبيبها ضعيف أمام الحياة ، بل لقد خيل اليها أن زوجها قد يكون أصلب عزما من ارماندو وأوفر شجاعة وأقوى شخصية وروحا ، وأنه لو كان فى موقف حبيبها ما فعل فعله ولا تضاءل وانكمش وجبن الى هذا الحد ، فقطبت حاجبها ونهضت متثاقلة ورافقت ارماندو حتى الباب وقد ملأت نفسها عاطفة غريبة شعرت بها نحو حبيبها لأول مرة

صغر فى عينها ، سقط تمثاله من القاعدة التى كانت قد أقامتها له ، احتقرته احتقاراً صامتا مهينا مؤلما ، ثم بدلت خطتها نحو زوجها ، وأقبلت عليه ، واهتمت بعلاجه بضعة أسابيع ، ولما جاء ارماندو ذات يوم لعيادته ، ألفاه سليما معافى ، وألفى روزينا جالسة بجواره متهللة الوجه مشرقة الصفحة تتحدث وتبتسم وتضحك كأنما الحياة ردت اليها فلم تعد تبحث عن شيء أو تفكر فى شيء !

* * *

تجاه هذا المشهد تغيرت نفس ارماندو تغيراً فجائيا تاما

نسى اخلاصه لصديقه ، وزايلته كراهية النفاق ، ولم يعد يتبرم بأن يشاطره المرأة التى يحبها رجل آخر ، ولم يعد يحفل بأن تكون روزينا له وحده . . .

أكل الحسد قلبه ، وحز فى صدره هناء غيره ، فانحط احساسه وتبلدت فضيلته ، وبعد أن كان يتأبى ويتمنع وينشد الصدق ويخشى الرذيلة ، وينزع الى الحب المطلق الخالص ، تاقت نفسه الى هدم السعادة التى يستمتع بها صديقه ، والى محاولة اتخاذ روزينا خليلة له ! . . .

كان يود أن يثأر لنفسه من هذه السعادة التى لولاه ما أحس بها الفونسو !

ولقد كانت فى الحق سعادة بهتت لها روزينا وزاد فى تأثير هذه السعادة فيها شعورها بأنها لم تستحقها .

اعتقد الفونسو أن زوجته كانت السبب فى شفائه ، وأن الفضل فى عودته الى الحياة ، يرجع الى عنايتها به وسهرها عليه وروائع تضحياتها فى سبيله ، فأحبها أعظم الحب وأغدق عليها من آيات عطفه وحنانه وعرفانه بالجميل ، ما بدل خلق المرأة ، وألمسها حقيقة نفس زوجها ، وأشاع فى كيانها المضطرب عاطفة الندم التى استحالت على مر الزمن الى رغبة عميقة فى الحب والولاء والتكفير

فهذه السعادة المتبادلة هى التى سعى ارماندو لتسميمها ، وهى التى أبى عليه حقده إلا أن يقضى عليها

ولكن كيف ؟ . . وبأى الخطط يأخذ ، وأى الوسائل أنجع فى اجتذاب قلب روزينا وصرفها عن الفونسو ؟

انها تحبه الآن ، تحبه حبا مفاجئا محا أساها الماضى وعلمها الاحتقار . . ولكن لماذا هى تحبه ؟ . . تحبه لأنه بات صحيح الجسم سليما نشطا قويا . . وإذن فلتؤخذ فى نفس الشرك ، وليعد الفونسو مريضا ، فترتد روزينا الى ارماندو وأنفها فى الرغام ! .

ليس غير المرض قوة ترد روزينا اليه وتلقيها فى مثل لمح الطرف بين أحضانه . . ! ثم . . ثم هو صديق الفونسو ، صديقه الحميم ، أحب الناس اليه وأقربهم الى نفسه . ففى وسعه استخدام هذه الصداقة الوثيقة لنيل غرضه والوصول الى مبتغاه ! .

وهكذا انتفع ارماندو باغضاء روزينا وصفحها عنه وتجاوزها عن الماضى وابقاء بيتها مفتح الأبواب له ، وعول على ايقاظ عوامل المرض في جسم صديقه العزيز الفونسو

وشرع يخرج برفقته كل يوم تقريبا ، وبدأ يتنقل به فى أماكن اللهو البرىء وفى الحدائق والمتنزهات العامة وفى ضواحى مدريد حيث الطبيعة صافية ساحرة ، ثم تدرج به الى الأندية وصالات الرقص الليلية ، ثم عرفه الى بعض الغانيات من صديقاته ، ثم أهاج فيه بدوره غريزة الشره التى كانت موطن ضعفه ، ثم زين له العودة الى معاقرة الخمر ، ثم حبب اليه السهر الطويل ، وما زال به يفسد خلقه وينهك بدنه ويلوح له بالملذات على اعتبار أنها حق له بعد طول المرض والحرمان حتى عاودت الفونسو الآم معدته وأوجاع كليتيه ، فتنبهت روزينا واستشعرت الخطر وأدركت بسليقتها أن الجريمة التى كانت تود ارتكابها بالأمس ، أقدم عليها اليوم ارماندو ولكن من طريق آخر . .

ذعرت المرأة ولفتت أنظار زوجها الى ما يتهدده ، فلما هزأ منها واستخف بها ، لم تتردد لحظة وأوصدت بابها فى وجه ارماندو وفرضت على زوجها قطع كل صلة له به

ولكن الرجل كان قد اعتاد السهر ، وألف معاقرة الخمر ، واستسلم للبطنة ، واستقر به مطافه الليلى على غانية عرفت بارشاد ارماندو كيف تلهب غرائزه وتبتز ماله وتستنفد البقية الباقية من عصارة قواه !

وجاهدت روزينا لانقاذ زوجها ولكن على غير جدوى . كان يغافلها ويمضى الى صديقه ، كان يأبى الخروج فى المساء بصحبتها ، كان يحقرها ويهينها كلما ذكرت ارماندو بسوء ، كان يخيرها بين قبول هذه الحياة وبين الطلاق ! . ولكنها كانت قد أصبحت تحبه وتتعلق به وتعلم علم اليقين أن لا حياة لها من دونه ، وأنه لو مات فمصيرها

المحتوم الى الشارع ، لأن الشارع وما يحمل فى أطوائه من بؤس وعار يكون أحب اليها فى تلك اللحظة من الارتماء فى أحضان الغادر اللئيم الجبان ارماندو !

وظلت تجاهد مستخدمة سحر أنوثتها ، وطيبـة قلبها ، ودماثة طبعها ، وتوقد ذهنها ، وكل ما أودعه حب قرينها نفسها من فضائل كانت تجهلها ، غير أن الفونسو لم يكترث لها وتمادى فى غيه وأسلم قياده لصديقه واتخذ من بيته شبه فندق يأوى اليه ساعة النوم فقط

فاسودت الدنيا فى عين روزينا واشتد سخطها ولـكنها مع ذلك لم تجسر على اتباع نداء فطرتها واصابة ارماندو فى الصميم

كانت تخاف أن يصاب زوجها نفسه فتنعكس الآية وتسوء العقبى غير أنها وقد أبصرت الفونسو ذات ليلة يدخل البيت مربد الوجه محدودب الظهر ممسكا كليته بيده . يتلوى ويصيح ويجأر من فرط الألم ، ثم يرتمى على فراشه مسلوب الحول ، مفقود القوى ، لم تستطع كبح جماح عواطفها ، فغامرت بكل شىء واستخفت بكل شىء ، وصارحت زوجها بأن ارماندو هو السبب فى نكبته وأن ارماندو لم يزين له الخمر والسهر والنساء إلا ليوقعه بين براثن المرض مرة أخرى ويجعل من زوجته عشيقة له !

واعترفت روزينا بكل شىء ، اعترفت بماضيها ، وعلاقتها العاطفية بارماندو ، وما كانت على وشك أن ترتكبه فى سبيلها ، ثم صـارحت زوجها بالتبدل الذى طرأ عليها بعد شفائه وكيف أنها شغفت به حبا ، فاعرضت عن ارماندو فأراد ان يثأر منها ويتخذ من عودة المرض فرصة سانحة لقهرها واجبارها على الخضوع والتسليم

لم تجد روزينا لانقاذ زوجها من مخالب صديقه غير هذه الوسيلة

التي دفعها اليها يأسها الشديد وانقياد زوجها الأعمى لوحي ارماندو الأثيم
ولكن هذا الاعتراف المباغت المروع المتليء حماسة وصدقا ، افضى كما قدرت المرأة الى عكس ما تقصد وانقلب عليها وبالا

هال الزوج ما سمع ، وانجابت السحب فجأة عن مخيلته ، وأشرقت بصيرته وذكر في مثل لمح البرق ، مختلف الحركات والاشارات والنظرات التي كانت تبدو في أثناء مرضه من ارماندو وروزينا ، والتي كان يلحظها ويحار في تعليلها ثم ينسبها الى الصداقة فيتجاوز ويغض الطرف عنها

واحتلت ذهنه صورة ارماندو وتمثل له طابع صداقته وأساليبه المنوعة في الاغراء ، فدهش حينئذ لها وأحس أنها لم تكن طبيعية وتحقق من سوء النية التي شاعت فيها ، وزادته يقينا كلمة ارماندو الذي كان لا ينفك يرددها عليه كلما شكا اليه أثر الخمر : « رفه عنك فلا يقتل الخمر إلا الخمر ! . . »

هذه الذكريات والمؤثرات جميعا ، كانت أفعل في بدن الفونسو من عودة المرض اليه . وكان يحمل لصديقه أخلص حب وأصدق ود ولماضي امرأته أبلغ تقدير وأعمق ذكرى ، فلما تشوهت في نظره صورة الزوجة وصورة الصديق ، وشاهد نفسه في هذه الدنيا وحيداً لا نزاهة ولا إخلاص في عطف انسان عليه ، ولا ثقة له ولا ايمان بأي انسان ، لاذ بالعزلة والصمت ، واستحوذ عليه ضرب من القنوط المزوج بالحسرة والاشمئزاز ، ولم يجد عزاء له إلا في نفس الرذيلة التي راضه عليها صديقه ، فكان لا يكاد يحس شيئا من القوة حتى يتحامل على نفسه ويترك البيت ويغشى بمفرده احدى الحانات ويظل يعاقر الخمر حتى يفقد صوابه ويفقد الاحساس بالعالم .

ولما كان يدخل البيت وتفطن زوجه الى أنه قد خدعها موهما اياها بأنه قد خرج للتريض ، تصيح وتنتحب وتهيب به وهى ممزقة الفؤاد طائرة اللب : أرث ارحم نفسك انك تنتحر ! ولـكنه كان لا يحفل بها ويقابلها بجسمه المترنح وابتسامته البلهاء وصمته البليد ، ثم يذهب ويرتمى فى فراشه متهيئا لاستقبال ألمه الذى يعرف أنه سيعاوده بعد حين !

وكان فى غضون ذلك قد تجنب جهد طاقته الالتقاء بارماندو ، وتخير من المشارب والحانات ما يعلم أن صديقه القديم لايرتادها

وكان لفرط كبريائه ويأسه وشعوره نحو ارماندو بالاشمئزاز والاحتقار ، يأبى أن يلتقى به ويراجعه ويبعث الحياة فى ماض يريد أن يطمس معالمه

ولـكن شاء القدر أن يلتقى الرجلان ذات مساء فى الطريق المؤدى الى الحان التى اعتاد الزوج الشقى أن يخلو بنفسه فيها . فلم تكد عين ارماندو تقع عليه ، حتى أسرع وحياه باشتياق ، واستفسر عن صحته وعن سبب اعراضه واحتجابه وتغيبه الطويل . فاضطرب الفونسو أول الأمر وتلعثم وانعقد لسانه ، ثم أشاح بوجهه وهم بالمسير ، غير أنه عند ما استوقفه الصديق الغادر النذل وحاول أن يتأبط ذراعه غلى الدم فى عروقه وجمحت به أعصابه ، فانهال عليه بكلتا يديه ضربا ولـكما وهو يرغى ويزبد ، وينعته بأحقر النعوت وأحط الصفات

وذهل ارماندو ، واستشعر ما وقع ، فلم يحرك أى ساكن ولم يستطع إلا التقهقر والفرار دون أن ينبس بكلمة

أما الفونسو فقد هرع الى الحان متداعى البدن مجهد الأعصاب وقد أحس ألماً شديداً فى قلبه مصحوبا بخفقان متعاقب يكاد يخنقه ،

فطفق يعب فى الخمر دون ما وعى ، حتى اذا ما حاول النهوض شعر كأن قلبه يكاد يثب من صدره وكأن يد جبار تقبض على عنقه وتزهق أنفاسه ، فصرخ صرخة هائلة وتمايل على نفسه ثم سقط على الارض جثة بلا حراك

* * *

وانتظر ارماندو مساء اليوم التالى لتشييع الجنازة ، ثم دهب لتعزية روزينا ، معللا نفسه برؤيتها على انفراد ، سعيداً بأنها أصبحت له ، موقنا بأنه لابد فائز بها عما قريب . فلما طرق الباب لم يجبه أحد ، فبهت واستفسر الجيران ، فقالوا له إن دونا روزينا قد ودعت الحياة ودهبت الى الدير !

شهيدة الخيال

بقلم الكاتب المجرى

هنريك رالف

لم تكن مدام فاندا من أولئك النساء اللواتي وهبتهن الطبيعة عقلا راجحا وذهنا صافيا وأعصابا سليمة . بل كانت امرأة حادة المزاج سريعة الانفعال هوائية متقلبة ، تفتنها مظاهر الحياة وتخلب لبها مفاتن الترف . وكانت شديدة الميل الى مطالعة القصص الغرامية ، لتسترسل فى عالم الخيال وتجسم الحوادث وتبالغ فى اضفاء حلة من التصور الشعرى على كل ما تقع عليه عينها من جمال

وقد اشتهرت بين صديقاتها بالأفكار الجريئة والآراء المتطرفة والعواطف الشبوبة المضطرمة ، فكن يحذرنها ويتبرمن بها ولا تنفك العاقلات منهن ، تنبهنها الى خطر الانفعالات العنيفة وسوء عقبى السعى وراء مثل خيالى أعلى

وكان هذا المثل الأعلى فى نظر فاندا هو الحب

كانت تعتقد أن لا خير فى الحياة دون حب ، ولا قيمة للزواج دون حب ، ولا سبيل للسعادة الا بتحقيق حب عظيم جارف فى دائرة الزواج

والحق أن فاندا كانت تحب الحب فى حرارة وحماسة واتقاد ، ولكنها كانت تحب الحب كعاطفة وهمية خيالية مجردة ، كلما صادفتها فى الحياة ممثلة فى رجل وكلما استمتعت بها ونعمت بروائعها ، تطلعت بالرغم منها الى عاطفة أشد تأججا وعنفا ، والى حب أوفر قوة وأعظم تأثيراً وجاذبية

وهكذا ظلت فاندا تتنقل من حب الى حب باحثة عن الحب

الـكامل المطلق العظيم حتى خيل اليها أنها قد وجدته ممثلا فى شخص موظف كبير من موظفى الحكومة يدعى المسيو جاك ريمسكى

وكانت فاندا مخلوقا رقيقا لطيفا ، أشقر الشعر أزرق العينين دقيق الشفتين ، ينسكب عليه فيض من الحيوية الناضرة يحببه الى القلوب ويخضع له العقول والأرواح . فلما تعرف اليها جاك ريمسكى أعجب بخفتها وطيشها وعذوبة حديثها ورونق شبابها وأسرع فطلب اليها يدها فى عصر يوم من أيام الربيع الفاتنة

وكان جاك شابا مديد القامة هزيلا خيالى النظرة الى الحياة ، يقرض الشعر فى ساعات فراغه ، ويجيد العزف على البيانو ، ويحذق الرسم ، ويكثر من ارتياد المسارح ودور السينما . فخيل الى فاندا أنه فنان فى ثوب موظف ، وأن ذهنه أعمق من أذهان الآخرين ، وعواطفه أنبل من عواطفهم ، وأخلاقه أرق وأسمى من أخلاقهم

واعتقدت أنه هو وحده الذى يستطيع أن يفهمها ويسعدها ويفتح أمامها أبواب الخيال والحلم ويبادلها فى دائرة الزواج ذلك الحب الـكامل المطلق المنشود

وشاءت الصدف أن يطلب جاك يدها فى يوم ربيعى جميل وفى احدى الحدائق العامة بجوار حوض ماء تمرح فيه الأسماك الملونة وعلى مقربة من « كشك الموسيقى » حيث كانت فرقة عسكرية مشهورة تعزف ألحانا غرامية رائعة لأحد كبار الموسيقيين

وتحالفت هذه العوامل الشعرية على اضرام نار العاطفة فى فؤاد فاندا واشعارها بأن القدر قد أجابها الى سؤلها فى النهاية وأن ذلك الحب العامر بالأحلام والآمال والقوى الحيوية الخالدة قد أقبل عليها فجأة وتمثل فى جبين جاك ، وعينيه ، وصوته المتهدج الناعم الرخيم

وكان أن عقد زواجها على حبيبها ريمسكى وشرعت فاندا تجرب التجربة العظيمة ألا وهى تحقيق مثلها الغرامى الأعلى فى محيط الزواج ودائرة الأسرة

وشمل الفرح حياتها وتملكها ضرب من الابتهاج استولى عليها وسرى فى كل حركة من حركاتها وتجسم فى حبها الجارف المبرح لزوجها

أرادت أن تجعل من حياتها البيتية مسرحا للحب . وأرادت أن تقف حياتها على الحب ، وأرادت أن تشعر نفسها وروجها بأن فى مقدورهما العبث بهذا العالم والفكاك منه والسيطرة عليه والتحليق فى عالم آخر حافل بمختلف الرؤى ، زاخر بأطياف السعادة والجمال شبيه بفردوس علوى يخلقه الحب ويسوده نعيم الهوى

واغتبط جاك بهذه النزعة وطاوع امرأته ، فكان هو يعزف وهي تغني ، وهو ينظم قصائد الشعر وهى تطالع روايات الغرام ، وهو يرسم وهى تثب فى البيت خفيفة الروح رشيقة الحركة تتنقل من غرفة الى غرفة كالعصفور يتنقل من غصن الى غصن

وكان جاك لا يكاد يدخل البيت وقد انهكه تعب النهار ، حتى تسرع فاندا فترتمى بين ذراعيه وتعانقه معانقة طويلة وتلاطفه وتداعبه وتصب فى أذنيه كل ما حشدته فى ذهنها طول يومها من عبارات الحب الغريبة المبتكرة الشائقة . وكان اذ يعود حاملا تحت ابطه « محفظته » الكبيرة ويهرع بعد العشاء الى حجرة مكتبه ليعد بعض التقارير الخاصة بعمله الحكومى ، تفتح فاندا باب الحجرة فجأة وتصفر ثم تضحك ثم تقهقه ثم تقتحم الحجرة غير حافلة ، ثم تقصى الاوراق جانبا ، ثم تحتضن زوجها ، وتجلس على ركبتيه وتوسعه ضما وتقبيلا وهو يتنفس بصعوبة

ويتأفف ويتوسل اليها أن ترحمه وتتركه لنفسه ولو ساعة واحدة . .

وبدأت فاندا تغار . تغار من لا شيء . تغار من صـديقاتها وقريباتها غيرة تافهة سخيفة تحط من كرامتها وتذهب باحترام الناس لها

وكانت تحرم على زوجها الخروج إلا بصحبتها ، ولا تطيق رؤيته يتحدث الى امرأة أو فتاة ، ولاتسمح له باستقبال سيدة إلا في حضرتها ولا تدع فرصة تمر الا وسألته فيها عمن صادف من الصـديقات في الخارج ، ولما كان يتجهم وينفعل ويوشك أن يغضب كانت فاندا تفتن في استرضائه وتبالغ في معانقته وتسخو عليـه بأروع آيات الحب ، فيشعر جاك عندئذ ان هذا الحب أثقل وطأة على نفسه من تلك الغيرة الطائشة المخبولة . .

ولشدة ولع فاندا بالحب . وبالحياة القائمة على الحب ، أهملت شئون بيتها ، وشئون زوجها ، فكان جاك يبحث عن قمصانه في المكان المعد لها فلا يجدها ، ويبحث عن أوراق عمله فيجد أنها نقلت من مكانها ، ويركض في البيت ملتمساً فرشاة يسرح بها شعره ، أو معجونا يدلك به أسنانه ، فيرى الأشياء قد بعثرت وأهملت واتسخت ، فتثور ثائرته ويهم بالصياح فتضحك فاندا وتطيب خاطره وتجيئه بما يريد ثم تعده بترتيب البيت وهي تحتضنه وتقبله ولا تنفك تردد أن حبه قد تمكن منها وأنه لو كان منصفا ما عاتبها على هذا الاهمال الذي هو في الحقيقة أبلغ دليل على صدق الحب

وهكذا شاعت الفوضى في البيت واضطربت ميزانيته وطمع الخدم فيه ، وأصبح من المستحيل على جاك المسكين أن يخلو بنفسه ويشعر برجولته ويستمتع بحريته

وكان يتوسل الى فاندا أن تلطف من حدة أعصابها ، وتهبط من

أبراج أحلامها ، وتخفف من ثوران عواطفها ، وتنظر الى الواقع .
ولكنها كانت تستنكر منه هذا النصح وتتهمه بنقص الحب وفتور العاطفة وجفاف الروح ، ثم تغضب وتلوى عنه وتدخل مخدعها وتظل منطرحة على فراشها تهمهم وتدمدم وتبكى كالاطفال

ولم يكن جاك يكره مظاهر الحب ، بل لم يكن يكره من امرأته أن تغار عليه ، وانما كان يكره اسرافها فى الحب واسرافها فى الغيرة واسرافها فى ارادة تكريس الحياة بأسرها لعاطفة معينة واخضاع الواقع بواجباته ومسئولياته لحكم القلب وسيادة البدن وألاعيب العشق والهوى

وكان جاك فى صميم نفســه ميالا الى الخيال ، أثر فى تكوين شخصيته حبه الفنون ولا سيما الموسيقى . فرحب أول الأمر بنزوات فاندا ووجد لذة فيها ، ثم غض الطرف عن اسراف امرأته ، ثم صبر واحتمل وحاول أن يوفق بين ارادتها وارادته ، بين مطالب الحب ومطالب العمل ، بين واجب القلب وواجب العقل ، ولكنه كان ضعيفا وكانت فاندا أقوى منه فتغلبت عليه واستحوذت على مشاعره وأجهزت على البقية الباقية من قوى ارادته ، فاستفاق ذات يوم واذا به ينساق فى تيارها ويستمرىء لذة الكسل والرخاوة ويهمل العمل ويهب نفسه هو الآخر لعاطفة الحب

بدأ يتباطأ فى انجاز عمله ، ويسرف فى طلب الأجازات ،ويتمارض الأسابيع الطويلة ، ويغادر مكتبه قبل الميعاد ليسعد بالجلوس الى امرأته ومغازلتها والاحساس بما يفيض به قربها من لذة البلادة ونعيم الخمول والدعة . وفرحت فاندا بهذا الانقلاب وختم الحب على بصرها فلم تعد تفكر إلا فى سعادتها المنبعثة من قلب ملؤه الأنانية

وإذ ذاك حدث ما لم يكن فى الحسبان

رقى جميع زملاء جاك وزيدت رواتبهم واستبعد اسمه من كشف الترقيات ، ثم استدعاه ذات يوم رئيسه وأبلغه أنه سوف يفصل ويحال الى المعاش ، اذا استمر على استخفافه بالعمل

عندئذ أفاق جاك من غشيته ، وتحت تأثير هذه الاهانة الصارخة التى لحقت به ، ارتدت اليه كرامته وعاوده الشعور بارادته فاستجمع قواه وتحفز وعقد العزم على التحرر من سلطان امرأته

وشرع يزجرها وينهرها ويتبرم بسلوكها ويفرض عليها التوسط فى الاحساس ، والاعتدال فى الحب ، والتعقل فى طلب الهوى ، والاتجاه نحو البساطة في كل شيء . ولكن فاندا وقد ألفت الحياة فى شبه جنون مطرد أو فى شبه حمى دائمة الغليان ، تنكرت لزوجها وحقدت عليه وأبغضته ، وبدل أن تخفف من علوائها وتكبح جماح اهوائها وميولها اصطنعت الدلال والصد والاعراض اعتقاداً منها أن هذا هو السبيل الوحيد لاسترداد سلطانها على زوجها

وأدرك جاك ما ترمى اليه فلم يحفل بها ولم يحرك ساكنا لاستمالتها وانصرف بجمعه الى عمله ، فثارت كبرياء فاندا وعز عليها أن تهمل على هذه الصورة ، فجعلت تثير المنازعات وتخلق أسباب الخصام وتعكر صفو جاك وتشوش عليه فكره وتحيل بيته الى جحيم ، ولكنه ظل هادئا صابرا محتملا يعلل النفس بأن ثباته سوف يخضعها ، وان عزمه الراسخ لابد ان يطهرها من لوثات خيالها ويردها آخر الأمر الى الطريق السوى !

* * *

ولكن كيف يمكن أن تعيش فاندا بلا حب ؟

كيف يمكن أن تفهم أن الحب الذى تقدسه يتعارض والحياة، ويستحيل أن تقبله الحياة ؟

ان جرثومة المرض كامنة فيها ، وهى من هذا المرض تتغذى، وبفضله تفكر وتتأمل وتتحرك وتعيش

وكما يتغذى المحموم من نار الحمى كذلك فاندا تتغذى من نار الحب

ويجب أن يكون الحب نارا دائمة الاضطرام لتستطيع فاندا أن تشعر بحياتها دائمة الحركة والنشاط

ولهذا السبب اختلطت الفضائل والرذائل فى عينى فاندا وجمحت بها أعصابها وبدأت تبحث عن عشيق

* * *

وأدركت بغريزتها أن لا بد لها من رجل يعبد الفنون ويشتغل بها ويقف حياته عليها . وأن هذا الرجل وحده هو الذى يستطيع أن يفهم الحب ويقدر قيمته ويرى فى المرأة مهبط وحى وخيال وشعر

وكان لزوجها صديق يدعى جرهاردت أسود العينين مجعد الشعر وضاح الجبهة ، أحرز شهرة واسعة فى تأليف القصص التمثيلية وفى نقد معارض الصور وحفلات الموسيقى

مالت الى هذا الرجل . وعقدت عليه صفوة آمالها ، وبعد أن كانت تكتفى بمشاهدة مسرحياته ومطالعة بحوثه الفنية والاعجاب بشخصيته ، تقربت اليه ، وبالغت فى اطراء فنه وعبقريته . فأحب فيها نفس الخلال التى كانت قد ولدت الحب فى قلب زوجها

أحب فيها روعة النزق والطيش والخفة ، أى روح الفتاة الساذجة العذراء ممثلة فى امرأة ناضجة الحسن مكتملة الأنوثة

هذا التناقض كان سرجاذبية فاندا وكان العامل الأكبر فى تقويض صرح حياتها

ولفرط ما كانت حاقدة على زوجها ، مستهولة اعراضه عنها وزرايته بها ، لم تنعم النظر فى مسلكها ، ولم تفكر فى عقبى طيشها ، وعقدت مع الأديب جرهاردت صلة الهوى المحرم مختارة ، دون ما وازع من شرفها وضميرها

وانطلقت تجرب تجربة الحب الثانية وتمثل مع جرهاردت نفس الدور الذى مثلته مع قرينها

أرهقت الأديب حباً . غمرته جنونا وخيالا وشعراً . اقتحمت حياته الهادئة واستقرت فيها وملأتها حركة وضجيجا . صرفته عن العمل . باعدت بينه وبين أصدقائه . أوشكت أن تصيب ذهنه بالعقم وتقضى على مجده وشهرته

ولكن جرهاردت كان فنانا وناقداً . كان روائيا ومفكراً . جمعت شخصيته الفذة بين اتقاد الخيال واتقاد العقل اللاحظ الفاحص المتأمل . وسرعان مافطن الى حقيقة أخلاق فاندا وأدرك أنها لا تحبه هو بقدر ما تحب الحب ، وأنه لو انساق فى تيارها وخضع لوحيها فسيجود بحياته الغالية في سبيل امرأة لا يستطيع أن يعزى نفسه بقوله انها كانت على الاقل تحبه

وسرعان ما أفاق هو الآخر من غشيته ، ولكنه بدل أن ينهر فاندا ويزجرها ويصد عنها التزم خطة غريبة كانت أشد وقعا فى نفس المرأة من الخطة التى اتبعها زوجها

أخذ جرهاردت يهزأ بفاندا ويسخر منها ويتهكم بخيالاتها وأحلامها ويعيرها بقصر ذهنها وفقر ثقافتها وعجزها عن فهم حقائق الحياة

وادراك الحد الطبيعى الذى يجب أن تقف عنده كل عاطفة ولا سيما عاطفة الحب

فبينا كانت هى متحمسة فى الاعراب عن انفعالاتها ، كان هو مثال الفتور ، يضحك منها ويتعالى عليها ويصارحها فى صراحة وقسوة بأن مظاهر حبها العنيف الأهوج الطائش لا يمكن الا أن تثير الشفقة عليها والارتياب فى صدقها والاستخفاف بقواها العاقلة ، وتجعل منها فى نظر الناس مثار هزؤ وسخرية

وسقطت هذه الكلمات على فاندا كشؤبوب من الماء البارد ، فبهتت واستنكرت وعراها شبه ذهول ، ولم تستطع أن تتصور أن الرجل الذى يشتد فى تعييرها ويسخر منها هذه السخرية اللاذعة يمكن أن يكون قد أحبها

وباتت تعتقد أن جرهاردت لم يحبها أبداً . وأنه خدعها وغرر بها . فاسودت الدنيا فى عينيها وأبغضت الرجال جميعا وبدل أن تتهم نفسها بخفة العقل وجموح الخيال اتهمت الرجال بغلظة العاطفة وتحجر القلب واستفحال الانانية ومادية الاحساس والشعور

وتمكنت منها حسرة أليمة ممزقة إذ أبصرت نفسها بعد أن خدعت زوجها ولوثت شرفها ، وحيدة شريدة منبوذة لم تحقق من آمالها شيئا ولم تفز من أحلامها بشىء ! وعندئذ فكرت فى قطع كل صلة لها بعشيقها والانقطاع لخدمة زوجها الوفى، ولكن الحياة فى صحبة أديب ماجد وفنان مشهور كانت مع ذلك أحب اليها وأقرب الى نفسها وأوثق صلة بجوهر طبيعتها ، فآثرت أن تنفصل عن زوجها وتطلق منه وتعيش مع جرهاردت زوجة أو خليلة

غير أن جرهاردت الذى كان قد ضجر منها وسئم خلطتها وبرم

بأخلاقها وتاق الى تجديد حياته وعواطفه ، نصح لها فى أدب بالعودة الى زوجها وبيتها ، فاخترقت الاهانة قلب فاندا كطعنة سكين ، وسدت الحياة فى وجهها ، واستحوذ عليها يأس فظيع ، فغادرت فى ذلك اليوم دار عشيقها ، وأسرعت الى بيتها وقد جن جنونها ، وهناك دخلت حجرة زوجها وغلقت الأبواب ، ثم فتحت درج المكتب واختطفت مسدسا صغيراً ، ودون تريث أو تأمل أو تفكير ، أطلقت النار فخرت صريعة مضرجة بدمائها !

فى ليلة عاصفة

للكاتب الروسى

مكسيم جوركى

كنت قد فرغت من وضع قصـة نفع حوادثها فى يوم من أيام الشتاء . وكنت قـد ألقيت القلم من يدى وجعلت أذرع الغرفة وأنا أفـكر . .

وكان الوقت ليلا . وعلى حين فجأة شعرت بأن فى الجو عاصـفة تتجمع ، وان أصواتا غريبة تنبعث من الشارع وتخترق أذنى . ولم أشك فى انها أصوات الجليد تحمله الريح وتقذف به على جدران منزلى

اقتربت من النافذة ونظرت الى الشـارع ، فألفيته مقفرا وسمعت الريح تصفر فى جوانبه ، وأبصرت الفانوس القائم فى الزاوية تتأرجح شعلته وتمايل وتـكاد تختنق

واستحوذ على حزن مفاجىء ، فخلعت ثيابي واطفأت المصباح واستلقيت على فراشى وحاولت أن أنام

وعندئذ تنبهت أعصابي ونشط ذهنى وطفقت أفـكر فيما كتبت وفى معناه وفى قيمته الانسانية والفنية

وكنت فى تلك القصة التى وضعتها قد سردت حكاية هى غاية فى البساطة . حكاية شـيخ فقير أعمى وزوجته . حكاية مخلوقين بائسين رقيقين أعرضت عنهما الحياة وتناساهما الناس

غادر الشيخ الاعمى قريته فى صبيحة يوم عيـد الميلاد ، ورافقته زوجته المخلصـة ، وانطلق الاثنان يضربان فى الارض الواسـعة ويستجديان بغية الحصول على بعض كسرات خبز أو بعض اسمال بالية أو بعض قطع النقود ، يفرحان بها ويشتركان بواسطتها مع القرويين فى الاحتفال بالعيد . .

وكانا يعللان النفس بامكان العودة الى كوخهما قبل صلاة الغروب وقد امتلأت جيوبهما بخيرات المحسنين ، ولكن الاكف انقبضت عنهما والوجوه تتنكرت لهما وخيبة الامل حزت فى صدريهما ، فآثرا العودة حالا الى الكوخ قبل ان يجن الليل ويشتد زئير العاصفة

وتقدم الشحاذ الاعمى يخطى وئيدة تسوقه امرأته وقد أمسك بساعدها خشية أن يتعثر فى الطريق

وشيئا فشيئا اكفهر وجه السماء واقبل الليل وتراكضت السحب واحتدمت العاصفة وغاصت أقدام الاعمى فى قطع الجليد التى كانت تضربها الريح فتتطاير وتتناثر على وجهيهما

وكان الكوخ ما يزال جد بعيد . . . فاستطرد الشحاذ وامرأته السير ، والاعصار يدوى حولهما وريح الشمال تعصف بهما والبرد يخترق بدنيهما وأسنانهما تصطك وأياديهما تتقلص وترتعش

وخارت قوى المرأة واحست انهـا قد ضلت الطريق فتثاقلت فى مشيتها وكفت بغتة عن الكلام ، فاستغرب الاعمى صمتها وقال :

— ألن نصل فى الميعاد ؟ . سنتأخر ولا شك عن صلاة الغروب

فطمأنته المرأة وعللته بقرب الوصول ولم تشـأ أن تصارحه بأن الليل قد خيم عليهما وان الاعصار قد شوش الجو فى عينيها وانهـا قد ضلت طريق الكوخ

واحست بعد لحظة طويلة بيأس عميق ينتابها فلم تستطع الصمت وقالت :

— اصفح عنى ايها العزيز . . لقد ضللنا الطريق ولم يعد فى مقدورى ان استأنف السير . . اريد ان اقف . . ان استريح . .

— البرد شديد . .

- اريد ان استريح !

— قد يقتلنا البرد فندفن وسط الجليد !

فغمغمت المرأة قائلة :

- وماذا يهم ؟ . . . ليست حياتنا من الجمال بحيث يمكن أن نأسف عليها . .

فتنهد الاعمى وأذعن لمشيئة زوجته

وجلسا على الارض واسند كل منهما ظهره الى ظهر صاحبه فكانا أشبه بخرقة بالية كبيرة تعبث بها الريح

وغمرهما الجليد ، وجعل يحز بدنيهما ، فانطوت المرأة العجوز على نفسها وانكمشت واكتنفها الصمت . فصاح الأعمى قائلا :

— انهضى . . انهضى . . هيا بنا . .

ولكنها كانت قد نامت وجعلت تتمتم كلاما لا يفهم ، فحاول زوجها النهوض بها فخانته قواه ، فصرخ قائلا :

— احذرى البرد . . احذرى الجليد . .

ولما لم تجبه تولاه الذعر وطفق يصرخ قائلا :

— الغياث ! . . النجدة ! . .

ولكنها ظلت صامتة . فاستهول الاعمى سكونها وجعل يتحسسها بيد مجنونة وقد أخذ اليأس بمخنقه . وفى تلك اللحظة سمع دق الناقوس وتجاوب رنينه فى الفضاء ، فاختلج الشحاذ وصاح :

— الناقوس يدق ! . . انهضى . . سنتأخر عن الصلاة

ولكن المرأة كانت قد أرسلت النفس الأخير وذهبت الى العالم الذى لا يرجع منه أحد . .

فحاول الاعمى ان ينهض ، غير انه لم يستطع ، فناضل وكافح غير

ان الجليد كان أقوى منه ، فأدرك أنه لا محالة هالك ، فأسلم أمره لله وأخذ يصلى ويقول :

— ارحمنا يا الله بعظيم رحمتك واغفر لنا خطايانا وتقبلنا فى ملكوتك فنحن بعض عبيدك المخلصين . . .

واتجه الاعمى بكل ما فيه من قوى الأمل نحو الله ، وأرسل صلاته حارة صادقة خالصة ، فخيل اليه وهو يصلى ان بصره قد تفتح فجأة وانه يرى معبدا رائعا عظيما ، وان المسيح بنفسه يتقدم اليه من وسط الهيكل ويقول :

— ادخل . . . ادخل الى معبدى . فقد آن لك أيها البائس ان تهلل وتفرح !

فسرى الدم فى عروق الأعمى وتحامل على نفسه ونهض ثم ارتمى على عتبة المعبد وبصره متجه الى المسيح الذى كان يرمقه ويرمق زوجته المسكينة بنظرة ملؤها الشفقة ويبتسم ! . .

وهكذا مات الشحاذ الأعمى وامرأته فى أحد الحقول فى يوم من أيام الشتاء العاصفة !

* * *

وبعد أن استعدت فى مخيلتى حوادث هذه القصة وتأملت فيها وتساءلت عما اذا كانت ستحدث فى نفوس قرائى ذلك الأثر الانسانى المنشود ، لاح لى أنى قد أصبت الغرض من وضعها ، فسررت من نفسى وحاولت أن أنام

وكانت ساعتى الصغيرة تدق وتذهب دقاتها باجزاء حياتى . وكانت العاصفة تشتد فى زئيرها ، وزجاج النافذة يهتز ، وأغصان الشجر فى الخارج تصطفق ، والريح تعوى ، والصرخات والغمغمات المكلومة تملأ

فضاء الغرفة وتشيع فى النفس القلق والرعب

وفجأة لمحت على مقربة من النافذة سحابة كثيفة ، وخيل الى أنى أبصر من خلال تلك السحابة عيونا وأجسام بشرية تتحرك وتحدق الى

رأيت أطيافا عديدة ، أطياف شيوخ وصبية ونساء ، فذهلت وحاولت أن أتعرف هذه الوجوه ، ولا سيما وجه شيخ أعمى أمسك بزنار امرأة عجوز ..

وفتحت عينى ما استطعت وتأملت تلك الأطياف بأسمالها البالية ووجوهها الضامرة وهتفت :

— من أنت ؟

وشعرت بأنى قد بدأت أفهم

وحينئذ قال لى طيف شاحب المحيا متحشرج الصوت :

— أعرفتنا الآن ؟ . . نحن أبطال قصصك ! . . نحن رهط البؤساء والمحرومين والحزاني ، نحن الذين قصصت على الناس حكاياتنا وجعلتهم يلتذون بوصف آلامنا ، فانظر الينا وتذكر . . . سنمر أمامك واحداً بعد الآخر . . هذا هو الصبى البائس وشقيقه ، وقد جعلتهما يموتان تحت نافذة أحد القصور حيث كانت تسطع شجرة عيد الميلاد . . وهذه هى الام المنكودة الحظ التى قضت نحبها قبل أن تحمل الى أولادها هدايا العيد . . وهذا هو الرجل . . .

فحجبت وجهى بكلتا يدى ووضعت أصابعى فى أذنى وأشحت برأسى ، ولكن عينى الشاردة أبصرت طيف الشحاذ الأعمى تجره امرأته العجوز وقدماه غائصتان فى الجليد ، فارتعدت وهممت بترك فراشى ، ولكن العاصفة هدأت بعض الشىء وتجمعت الاطياف

وتراءت أمامى وتقدمت نحوى فصحت قائلا :
— يا إلهى . لم كل هذا ؟ وما معنى كل هذا ؟ ..
فأجابنى طيف لامع النظرة وضاح الجبين :
— أى شيطان دفع بك الى كتابة تلك القصص وتصوير حياة هؤلاء المساكين ؟ الحياة مفعمة بالألم ، فلماذا تضاعف آلامها برسم الشقاء والافتنان فى رسمه والاستعانة بخيالك لجعله أوقع اثراً فى النفوس ؟ . . .
ما تريد بهذا ؟ . . أتريد أن تقضى على البقية الباقية من الشجاعة وقوة الاحتمال فى صدور الناس ؛ أم تريد أن تحرمهم الأمل فى السعادة ، أم أنت تبغضهم وتسعى لتسميم رغبتهم فى الحياة ؟ . . أجبنى ماذا تقصد بفنك هذا وقصصك المتشائمة السوداء ؟ . . .
فحرت فى أمرى واستغرقنى الوجوم ثم تأملت لحظة فيما قاله الطيف واستجمعت قواى وأجبت :
— ياطيف أحد أبطالى الحزانى التاعسين ، أصدقك القول ، أنا لم أقصد بتصوير شقاء البؤساء إلا الهاب عاطفة الرحمة والانسانية فى قلوب انت تعرف حق المعرفة ما هى عليه من قسوة
ولم أكد اصمت حتى رأيت الاطياف تختلط وتتمازج وتتحرك كأنها توشك أن تطير ، وسمعت الاعصار يهدر ويصفر ويزمجر ، وخيل الى أن قهقهة مروعة تنبعث من الاطياف والاعصار معا ، فتصبب العرق البارد من جبينى وصرخت :
— ما هذا ؟
فأجابنى الصوت :
— هى الاطياف تضحك !

— وممن تضحك ؟

— منك أنت !

— ولماذا ؟

فقال الصوت :

— لأنك فى الحق رجل ساذج !.. كيف تريد أن تلهب فى قلوب الناس بقصصك الخيالية عاطفة الرحمة ، فى حين أن الحوادث الواقعية ومظاهر الشقاء والبؤس التى يرونها كل يوم لم تستطع أن تبدل نفوسهم وتلطف من قسوتها ؟ . . .

فاذا كانت الحقيقة الفاجعة الحية لا تؤثر فيهم فهل تظن الخيال يغير من طبيعتهم ؟ . . . تكلم . .

فأحرجت ولم أدر ماذا يجب أن أقول . وكان فى وسعى ان أقول للطيف أن قوة الفن قد تفوق فى التأثير قوة الواقع . ولـكن هل أنا واثق من هذه النظرية ؟ . . . وهل فى مقدورى أن أؤكد انى قد أصلحت بفني نفس انسان ؟ . . .

لست متأكداً من شيء . . كنت حائراً مضطربا ولذلك لم اتكلم بل نهضت من فراشى مسرعا وهروات الى مكتبي وتناولت الأوراق التى كتبت فيها قصة الشحاذ الأعمى ومزقتها ثم فتحت النافذة والقيت بالأوراق فى الفضاء

وعندئذ تبددت الاطياف وانحلت واختفت ، فعدت الى فراشى وانسحق بدنى تحت وطأة النعاس ، ولم استيقظ إلا عند مطلع الفجر مصدع الرأس ملىء النفس بالوساوس والهموم ! . . .

السارقة

للكاتب الرومانى

أنطونيو موريتو

أجفلت مدام ماريا عند ما أبصرت الباب يفتح ويدخل عليها فجأة المسيو فردريك لامع العينين وقد جالت على شفتيه ابتسامة خفيفة ملؤها السخرية

وكانت جالسة على مقعد بجوار النافذة فهبت مذعورة وتقدمت اليه مستنكرة بعد أن ضمت على صدرها طرفى غلالتها الفضفاضة البيضاء

وظل الرجل واقفا تجاهها لا يتحرك . وظلت تتفرس فيه وصدرها يعلو ويهبط ، وقد انعقد لسانها وسرت فى بدنها قشعريرة باردة

وأخيراً ضحك المسيو فردريك وألقى بقبعته على المقعد . ثم اتجه صوب النافذة وتنفس طويلا . ثم عاد الى ماريا وقال هادئا جاداً :

— علام كل هذا الرعب ، وهل فى مظهرى ما يخيف ؟ لقد انتهزت فرصة غياب زوجك وجئت أعرض عليك حلا فيه انقاذكم جميعا

وأطرق المسيو فردريك لحظة وأومضت عيناه كعادته كلما عقد العزم على أمر فيه مصلحة له . ثم رفع رأسه وتبدلت ملامحه وشاع فى تقاطيع وجهه ضوء سحرى غريب يفيض شفقة ورحمة

ولكن مدام ماريا لم تكد تلمح هذا التغير حتى اشتد رعبها وتضاعف خفقان قلبها وتقهقرت حاجبة وجهها بكفيها

فابتسم الرجل نصف ابتسامة وأردف قائلا :

— أية فائدة لك من هذه الحياة القاتمة الشقية التى ارهقتك وأذبلت نضرة شبابك وقضت عليك بذل الحرمان الفظيع ؟ . . . زوجك اوكتاف بدد ثروته فساءت أخلاقه وفسدت طباعه واضطرب عقله . ثم هو فوق هذا يضطهدك ويستبد بك ويقضى لياليه فى الحانات ويجيئك آخر الليل سكران معربداً يصيح ويقذع ويضرب ويحيل بيتك الى جحيم ! . . . هذه هى حياتك يا ماريا ، فهل أنت قابلة بها وهل ودعت كبرياءك القديمة وتناسيت مجدك التالد وأصبحت امرأة مفقودة الحرمة والكرامة ؟ أجيبى

فرمقته ماريا بنظرة نارية ورفعت ذراعها وأشارت الى الباب وغمغمت فى سكون قائلة :

— أخرج !

فحدق اليها فردريك وكظم غيظه وقال :

— لا أستحق منك هذه المعاملة . لقد أخلصت لك الود . وعنيت بك أيام مرضك . وكنت أعودك كل يوم بينما كان زوجك يخدعك ويفر من البيت الى أحضان عشيقته روزالند . . .

فامتقع وجه ماريا وغلى الدم فى عروقها ولم تستطع الاحتفاظ بالصمت فقالت :

— ما قيمة اخلاصك اذا كنت تريد أن تتقاضى عليه أجراً ؟

فدنا منها بغتة وأمسك بذراعها وقال وهو يهدر :

— أنت السبب فى هذا الحب الذى أكنه الآن لك والذى يعذبنى ويعكر على صفو حياتى !

فصاحت ماريا قائلة :

— أنا السبب ؟ . . .

فأجاب قائلا :

— نعم أنت ! . . لماذا تلطفت معى ؟ . . لماذا قربتني اليك ؟ . . لماذا جعلتني موضع سرك ؟ . . بل لماذا فتحت لى أبواب بيتك ؟ . . .

فذهلت ماريا وقطبت حاجبيها وقالت :

— لأنك كنت أخلص صديق لزوجى !

ثم شمخت برأسها وتعالت وأردفت قائلة :

— هل شجعتك يوما على مغازلتي ؟ .. هل بدرت منى أية هفوة تمس شرفى ؟ .. هل منيتك بشيء ، هل لوحت لك بشيء ،هل قطعت على نفسى عهداً بشيء ؟

فاضطرب فردريك وتخلص من مأزقه بأن قال :

— المهم هو ما اعتقدته أنا . . اعتقدت انك ميزتنى فاحببتك ! والأهم من ذلك اني الآن أحبك ولا بد أن أفوز بك

فصرخت ماريا قائلة :

— لن أخون زوجى وابنتى !

فأغمض فردريك عينيه نصف اغماضة ثم فتحهما فرف حاجباه واكفهرت سحنته ، فارتعدت فرائص ماريا وغمغمت فى شبه توسل قائلة :

— اخرج ! . .

فقهقه الرجل قهقهة عنيفة حادة ووضع ابهامه فى فتحة كم صدريته وجعل يتمايل زهواً وخيلاء ، ثم انقبضت فجأة حوافى عينيه وتجهم وجهه وخطا نحو ماريا وقال وكأنه يهمس :

— زوجك أوكتاف ينتظرنى ! . .

فتراجعت مذعورة وتمتمت قائلة :

— هو ؟ .. كيف ؟ ...

فهز فردريك رأسه وابتسم واستطرد قائلا :

— انه الساعة فى منزلى !

فتطلعت اليه وتحدته وقالت :

— وبعد ؟

فأمسك مرة ثانية بذراعها وجذبها اليه فى عنف وقال بصوت غائر أجش :

— آخر قطعة أرض يملكها أوكتاف ستنزع ملكيتها غداً .. ستصبح فريسة الدين .. ولا سبيل لانقاذها إلا بدفع فوائد الدين المتأخرة على الأقل ثم باصلاح بعض أجزاء الارض وتحسين وسائل استغلالها ..

فصعدت ماريا نفسا مستطيلا وغشى السواد بصرها ، ولكن فردريك لم يحفل بها ومضى يقول :

— زوجك الآن فى بيتى وسأنقذه اذا شئت .. سأقرضه المال الذى يريد دون فوائد واحتفظ لكم بالارض التى هى آخر ما يملكه أوكتاف ! .. ففكرى ... وزنى الأمور بميزان العقل .. وسأظل واقفا انتظر قرارك فعسى أن تقدرى حبى وتضحيتى

واستدار واتجه صوب النافذة وجعل يتلهى باللعب بسلسلة ساعته ويسرح أبصاره فى الأفق البعيد

وأما ماريا فقد أحست كأن يداً قوية تقبض على قلبها وتعتصره اعتصاراً . فجعلت تذرع الغرفة وتلهث وتهذى كمحمومة ، ثم رمقت ظهر فردريك بنظرة حاقدة ملتهبة ، ثم ضربت صدرها بقبضتها حسرة وكمداً وهى تجيل نظرها فى انحاء الغرفة مشرئبة العنق كغريق مشرف

على التهلكة يبحث فى اللجة الطاغية عن حطام

وحال بخاطرها فى لحظة من لحظات الجنون أن تهب نفسها لهذا الرجل وتستريح ، ولكنها سرعان ما تأبت واستنكرت وعاودها القلق فتعاقبت أنفاسها وتصبب العرق البارد من جبينها وأوشكت أن تصاب بشبه اغماء

وانها لفى حيرتها ودوارها تتلمس سبل النجاة دون جدوى واذا بصوت رقيق ينبعث من خارج الغرفة وتتجاوب اصداؤه فى كيانها . فهدأت بعض الشىء واستضاء وجهها وأسرعت ففتحت الباب وفردريك ينظر اليها مبهوتا ثم صاحت باحدى خادماتها قائلة :

— جورجيت .. قولى لفكتوريا انى هنا ! وكرت راجعة مرفوعة الرأس مقطبة الجبهة مهيبة الوجه ومشت الى فردريك ، ولما قاربته طوت ذراعيها على صدرها وقالت فى سكون :

— لقد فكرت !

ثم أردفت قائلة وهى تلهث :

— اخرج !

فدهل الرجل وعض على شفتيه حنقا ، ثم هز رأسه كمن يثق بالفوز النهائى ، ثم اختطف قبعته وانحنى باحترام وخرج منصوب القامة ثابت الخطى

* * *

وفجأة شعرت ماريا بتحول اتجاه تفكيرها . وأحست كأن قوة غير منظورة تدفعها الى طلب العزلة والاستجمام . فعدلت عن استقدام ابنتها فكتوريا وعن التحدث اليها الآن وأعلنت الخادم برغبتها ، ثم صعدت الى الطابق الأعلى ودخلت مخدعها الخاص وأوصدت بابه عليها

واستلقت على الفراش ، ومضت تفكر فى الكارثة التى توشك أن تنقض على بيتها :

كيف تنقذ الموقف وكيف تنجو من مخالب فردريك وكيف تشعر زوجها أوكتاف بانحطاطه وتلمسه عقبي سلوكه وتوقظ ضميره الراقد واحساسه المتبلد وعواطفه القاسيه المتحجرة ؟

لقد كان هو السبب فيا انتهت اليه حياتها من شقاء ، كان هو السبب فى اذلالها وانتهاك حرمة كرامتها ووقوف فردريك منها ذلك الموقف الزرى الشائن الذى جعل منها سلعة للمساومة !

والآن ألا يمكن رد زوجها الى محجة الصواب والهدى ؟

أليس فى وسعها ابتكار علاج تستأصل به شأفة غرائزه ؟ أليس فى مقدورها وهى المرأة القوية النبيلة العاقلة الشريفة ، أن تطهره من رذائله ، وتحرره من سلطان شهواته ، وتكسر من شرة ميوله الشاذة وأهوائه الوضيعة المستنكرة ؟ . . .

يجب عليها أن تواجه أوكتاف بالواقع وتدنيه من الهاوية وتثير فيه كوامن حبه لابنته وتخيره بين القضاء على مستقبل فكتوريا وبين الارتداد العاجل الى حياة الخير والفضيلة والجهاد والعمل

هذه فرصة لن تعوض . فكيف تنتهزها ماريا ، وكيف تفيد منها ، وكيف تسخرها لمصلحة زوجهاومصلحة ابنتها ومصلحة الأسرة ؟

الحق ان الوسيلة جريئة وان فى الاقدام عليها مغامرة قد تذهب آخر الامر بحياتها . ولكن ماذا يهم ، ومتى كانت ماريا الشقية البائسة المنكودة الحظ تطمع فى الحياة أو تعلل النفس بأمل أو سعادة ؟

لا مفر من العمل . ولا مندوحة عن اقتناص الفرصة السانحة !

جالت هذه الخواطر فيذهن ماريا فنشطت أعصابها وتراكض الدم

فى عرض شرايينها وامتلأ قلبها عزما وارادة وقوة

غداً .. نعم .. غداً ؟ .. كلا ..

أمجنونة هى ؟ .. فى غد يكون قد فات الوقت ! .. اليوم .. الليلة .. بعد منتصف الليل .. فى تلك الهدأة السحرية حيث يموت البدن وتقر الاعصاب ويرف على البيت الفسيح جناح الصمت ! ..

أجل . . فى هذه الليلة تغامر ماريا بمستقبل ابنتها فى سبيل انقاذ زوجها وانقاذ شرفها

فى هذه الليلة تقدم ماريا على أمر قد تكون فيه نعمة أو قد يتطور فيستحيل الى نقمة ! . . واذن فلتغمض ماريا الآن عينيها الكليلتين ولتنم ساعة أو ساعتين ريثما يدنو موعد الغداء . .

ولكن ما هذا ؟ . . لقد خيم الصمت منذ الساعة على البيت . . لا نبأة تسمع ولا همس . . أين هى فكتوريا ؟ . . كانت هنا ؟ . . خرجت ؟ .. ربما ..

وخيل الى ماريا انها تسمع صوت باب الحديقة وهو يغلق ، فوثبت من فراشها وأطلت من النافذة فأبصرت ابنتها فكتوريا تجتاز الشارع مرتدية فستانها الاحمر الجديد وتدخل باب البيت المجاور حيث يقيم حبيبها وخطيبها المعبود ادوارد ..

تنفست ماريا الصعداء واحتواها الصمت وعادت الفكرة الثابتة تحتل مخيلتها وتغلى الدم فى عروقها وتستحث أعصابها لاستعجال الغرض المنشود

ولم تستطع المقاومة ، وعلى حين فجأة تقدمت الى مكتبها الصغير وفتحت أحد أدراجه وأخرجت منه مفتاحا ، ثم أغلقت الدرج ، ومشت إلى الباب وهى تترنح

ولما ألفت نفسها فى الدهليز الطويل تشجعت واستطردت السير حتى بلغت مخدع ابنتها فدخلته

وكان صفاء العذارى يسود المخدع ويضفى عليه حلة ساطعة من نور . فارتعشت ماريا وأحجمت ، ولكن خيال زوجها تمثل لها ، وذكريات حبهما القديم استفاقت فى ذهنها ، فاتجهت من فورها صوب خزانة حديدية صغيرة قامت فى احدى زوايا الحجرة ، ومدت أصابعها القابضة على المفتاح وفتحت الخزانة فى عناية ورفق وهى تلهث وتتلفت

وبالرغم منها تحركت يدها اليسرى وغابت فى أعماق الخزانة ثم ارتدت ممسكة برزمة من الاوراق المالية ما كاد يقع عليها بصر ماريا حتى اختلجت وجمد الدم فى عروقها

وأخفت الاوراق فى صدرها بين ثدييها وأغلقت الخزانة ، ثم استدارت وكرت راجعة بخطى وئيدة متزنة وقد قطبت حاجبيها وزايلها اضطرابها وارتسمت على وجهها الصلب أمارات العزم والتحفز والتحدى

* * *

وانقضت بضع ساعات

وفيما كانت ماريا تهيىء البهو الكبير وتعاون الخدم على تنسيق المائدة ، متوقعة قدوم ابنتها فكتوريا صحبة خطيبها ادوارد لتناول طعام الغداء ، لمحت من شرفة البهو المفتوحة ، زوجها أوكتاف يجتاز الحديقة محدودب الظهر متساقط الكتفين منسحقا تحت وطأة همه ، ثم يصعد درجات السلم الخشبي المؤدى الى مخدعه الخاص المجاور لمخدع ابنتـه فكتوريا . ولم تكد تبصره حتى أدركت أنه عاد خائبا وان فردريك أبى أن يقرضه المبلغ ، فتعاقبت أنفاسها وتولتها رعدة وأوشكت

أن تضعف ، ولكنها سرعان ما تمالكت أعصابها ، ومضت تنسق المائدة فى هدوء وعدم اكتراث

ودقت ساعة البهو الواحدة بعد الظهر ، فاختلجت ماريا وهمت بالصعود الى مخدع زوجها . وانهـا لتتقدم نحو السلم الخشبي القائم فى احدى زوايا البهو ، واذا بها تتراجع وقد انقبض قلبها وامتقع لونها وعاودها الاضطراب

شاهدت زوجها يهبط الدرج مكفهر السحنة منفوش الشعر جاحظ العينين كمن به مس . فتقهقرت أيضا وظلت جامدة تحدق اليه

ودنا منهـا اوكتاف وامسك بذراعها وهزها هزاً عنيفا وهو يصيح قائلا وقد علا الزبد شدقيه :

— أين المال ؟ . . أين الثلاثمائة ألف فرنك ؟ فأطرقت وانعقد لسانها . ولكن أوكتاف ضرب المائدة بقبضته وصرخ مرة أخرى :

— أين المال ؟

فتشجعت وقالت وهى تحاول التخلص منه :

— ماذا تريد أن تصنع به ؟

فقال وهو يهدر :

— اجيبي . . أين المال ؟ . . تكلمى . . من فتح الخزانة ، ومن استولى على المبلغ ، انت ام ابنتك ؟ وما السبب فى اخفاء المبلغ اليوم وقد رأيته بالأمس فى مكانه ؟ . . اجيبي . .

وتحركت شفتا ماريا ولكنها قبل ان تنطق بكلمة فتح باب الصدر ودخلت منه فيكتوريا . فانقض اوكتاف على ابنته وقال وقد اندلعت عيناه وتطاير منهما الشرر :

— الخزانة الحديدية فارغة ! .

فوجمت الفتاة وشرد بصرها وغمغمت تقول :

— فارغة ؟

فأيقن اوكتاف ان فيكتوريا بريئة ، وتحول لفوره نحو امرأته وقال :

— أين ذهب المال ؟ تكلمى . .

وعندئذ رفعت ماريا رأسها وطوت ذراعيها على صدرها فى هدوء ثم قالت :

— أنا التى سرقته !

فذعرت فيكتوريا وجحظت عينا أوكتاف وقال :

— انت ؟

فأجابت ماريا فى سكون قائلة :

— هذا المال ليس ملكى ولاملكك . انه ملك ابنتى ! . . انه البائنة التى اقتصدناها لها والتى لا بد منها لادوارد كى يستطيع ان يتزوج . . وأنت تعلم ان ابنتك تحب ادوارد وانه مكبل بالديون التى عقدها بالرغم منه ليتمكن من تزويج شقيقته سيليفيا . .

فلو أعطيتك هذا المال ، تعذر على ادوارد وفاء ديونه واستحال عليه الاقتران بابنتى ! . .

فهل تصر على امتلاك المبلغ والتضحية بمستقبل ابنتك ؟ تكلم بدورك الآن ! . .

ففغر اوكتاف فاه كأبله وجال ببصره فى انحاء الغرفة كمعتوه ، ثم قال بصوت حائر قلق كمن يستجدى المعونة :

— ولكن ارضنا . . آخر قطعة بقيت لنا . . ستنزع ملكيتها غداً . . غداً . .

فقالت ماريا :

— أنت المسئول عما حل بنا

وحينئذ لمعت عينا فكتوريا واستهولت ما يراد بها فصاحت وقد تعلقت بذراع أمها تقول :

— أنا أيضا شاركتكم فى ادخار ذلك المبلغ . كنت اقتر على نفسى واقتصد . كنت احرم نفسى الخروج من البيت وارتياد الملاهى كنت اقضى الليل ساهرة أفصل القبعات والقمصان وادخر ما اربح ، فى حين كنت انت . . انت ابى . . لا تفكر فى . . وتبدد البقية الباقية من ثروتك فى الحانات ودور اللهو ! . . لا . . لن أتزل عن حقى . وهذا المال مالى ، بل هو ملك ادوارد !

فتمتمت ماريا قائلة :

— وهذا أيضا رأيى !

فنقل اوكتاف بصره فيهم ورف حاجباه وأحس كأن العالم يوصد أبوابه فى وجهه ، فزفر زفرة حرى وتمثلت له حياة البؤس القاتمة المروعة التى لم يألفها ، فقال باسطا ذراعيه كطفل يلتمس الرحمة :

— وكيف أعيش ؟ . . كيف اظهر أمام الناس ؟ أين أذهب ، وماذا أعمل ، وأية حياة تنتظرنى ؟ . .

فقالت فكتوريا فى قسوة تجلى فيها العدل وأنانية العذارى :

— اشتغل !

وأردفت ماريا قائلة :

— وانا معك !

فقطب أوكتاف حاجبيه وشمخ برأسه وقال :

— أنا أشتغل ؟ . . . ما تعودت هذا ولست الرجل الذى يمكن أن يستذل !

وصمت لحظة وهو يلهث ثم قال بصوت غائر متحشرج ؟

— أولى بي أن أنتحر !

وهدأ فجأة ونصب قامته ثم استدار واتجه نحو الباب بخطى ثقيلة كأنه يجر نفسه جراً . وإذ ذاك انخلع فؤاد ماريا واضطرم فى صدرها حبها القديم وخشيت عاقبة ما فعلت ، فأسرعت اليه وجذبته من ذراعه وصاحت :

— أوكتاف ! . . انى لمتأهبة إذن لتضحية شرفى وعرضى اذ كان ذلك ينقذك واذا كنت تقبله !

فحمد أوكتاف والتفت ثم تطلع اليها مبهوتا وغمغم قائلا :

— ما معنى هذا ؟

فقالت ماريا على الفور :

— معناه أن صديقك . . . فردريك . . . ساومنى اليوم على عرضى ، وكان مستعداً لامدادك بالمال لو أنى طاوعته . ولكنى أبيت موقنة بأنه سوف يردك خائبا . ولهذا سرقت . . سرقت المبلغ الذى كنت أعلم أنه آخر أمل لك والذى أعتقد أن ليس من حقك التصرف فيه . فأنت الآن بين أمرين : إما أن تنتهك بيدك حرمة رجولتك وتنقذ نفسك بالقاء امرأتك بين أحضان سواك . وإما أن تسلم بالواقع فتدع المال لابنتك وتتحرر من غرائز الكسل والخمول وتقاوم وتجاهد وتشتغل !

وهز أوكتاف رأسه هزاً عنيفا وصرخ قائلا :

— أريد المبلغ ! . . . لن أستطيع أن أعيش ! . . لن أستطيع . . .

وتهاوى بغتة على نفسه واختلجت أعضاؤه وتقلصت شفتاه فسقط على مقعد وأجهش بالبكاء ثم قال :

— الموت . . . الموت أحب إلى !

وكانت صور الفقر والبؤس وللهانة والاذلال وفقدان الكرامة تعصف به وتملأ فسحات خياله وتستثير أعصابه فلم يستطع أن يقاومها ، ونهض كالمخبول ، مسلوب الحول ، فاقد اللب ، زائغ البصر ، وتحت تأثيرالأزمة الطارئة التي هبطت عليه ، مشى الى الشرفة ، وغافل امرأته وابنته ، وحاول أن يلقى بنفسه منها ، ولكن فكتوريا كانت تراقبه فسبقته اليها وأمسكت به وجعلت تجذبه وهى تصيح بأمها قائلة :

— أعطه النقود !. . ليأخذها ! . . ليبددها !. . لن أتزوج !. . لا أريد أن أتزوج ! . . لا أريد ! . . لا أريد !

وتملك الفتاة بدورها شبه جنون ، واستحوذ عليها يأس مروع ، فانطلقت تضرب صدرها بقبضتيها وتنتزع شعر رأسها من جذوره ، وتبكى وتنشج نشيجا متواصلا مزعجا ، ثم تداعت قواها فجأة وارتخت أعضاؤها وانتابها دوار فشهقت شهقة طويلة ، وارتمت بين ذراعى أمها شبه جثة هامدة

فذعرت ماريا واسودت الدنيا فى عينيها وجعلت تصرخ قائلة :

— ستقتل ابنتى ! . . ستقتل ابنتى !

فتراجع اوكتاف مبهوتا وهو يحدق الى فكتوريا ثم أسرع اليها وتناولها فى رفق من بين ذراعى أمها وحملها وهى تنتفض كطائر مذبوح ، ثم أرقدها على مقعد مستطيل ، ثم جاء بماء رش منه على وجهها ، ثم أنشقها روائح عطرية منعشة ، ثم أمسك بيدها الرخوة

الناعمة وجعل يربت عليها وهو يقول بصوت متلهف مرتعش خنقته الدموع :

— ابنتى . . . فيكتوريا . . . فيكتوريا . . . أنظرى إلى . . . أنا والدك !

وظل جاثيا بالقرب منها لحظة طويلة وماريا ترقبه وترقبها . ولما هدأ بدن الفتاة واستقر السكون فى أعضائها وفتحت عينيها الكليلتين وسرحت بصرها الشارد فيمن حولها ، وثب قلب او كتاف فى صدره من فرط الفرح وأشرق جبينه وتهلل محياه ، فانحنى على ابنته وأسر فى أذنها هذه الكلمة وهو يلهث :

— سأشتغل !

وعندئذ تنهدت ماريا وارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة !

حلم « ماهو »

للكاتب اليوجوسلافى المسلم

ز . تشوروفيتش

كان « ماهو » من أمهر موقدى المصابيح فى بلدته ، وكان يحب هذه المهنة التى ألفها منذ نعومة أظفاره

واتفق « لماهو » أن أولع بـ « فاتكة » ابنة الشيخ حسن أغا فطلب يدها الى والدها

وكانت « فاتكة » غادة حسناء فى العشرين من عمرها هيفاء القامة ، دقيقة التقاطيع ذات شعر دهبى رائع ، وحيوية فياضة ساحرة

ورضى الشيخ حسن اغا بـ « ماهو » عريسا لابنته ، واستقر رأيه على أن يتم عقد الزواج فى مساء الغد

وها هو دا العريس اليوم وقد استخفه الطرب يلهو ويمرح ويضحك ويغنى كعصفور يرشك ان يستقبل الربيع

ولم يسطع « ماهو » أن يخى عن الناس فرحه العظيم بيوم غد ، فكان دائم الضحك والثرثرة يخيل اليـه ان ذراعه المديدة القوية ستحتضن عما قريب حورية فاتنة من حور الجنان

وكان ماهو يعـدو من جهة الى أخرى ، ويدور حول نفسه كالنحلة ، ويرقص ويصيح ويزمجر ، ويندس بين أثواب امه وقريباته ويشوش عليهن أعمالهن ، ويفسد فطائر الحلوى ، ويعبث بنظام مخدع العرس ، وهو يحوم بين النساء وقد فقد اتزانه من فرط الفرح

ولما أقبل الليل خارت قواه وران الكرى على جفنيه وأحس أنه فى أشد الحاجة الى النوم ، فتحايل على نفسه ودخل حجرته الصغيرة العارية التى لم تجملها غير صور خياله الجامح المضطرم

والحق أن الغرفة كانت بائسة رطبة الجدران مظلمة الجو ، فرمقها ماهو بنظرة ، وابتسم لها فابتسمت له ، وانطلق من فوره الى وسادته البالية واستلقى عليها ، وعقد أصابعه تحت رأسه ، وسرح ببصره فى السقف المنخفض وجعل يقول وهو يغمض جفنيه على حلمه الزاهر الجميل :

— نعم . ستكون الحياة رائعة الجمال عندما تصبح فاتكة هنا . غداً فى مثل هـذه الساعة تكون تلك الحورية لى ، فترقد ها هنا بجوارى وأعانقها وتعانقنى

وكان يود ماهو لو استطاع أن يحلم طويلا ، ولـكن شبه حمى غريبة طارئة استحوذت عليه وأرجفت أعضاءه كلها

تخيل نفسه والداً وأبصر ملء عينيه طفله الصغير يحبو أمامه على الأرض ، فاصطكت أسنانه وتصبب العرق من جبينه وتقلب بالرغم منه ومد ذراعه وطوق العصا التى يوقد بها المصابيح وجعل يعانقها ويلثمها كأنما هو يعانق فاتكة بنفسها

وأخيراً افلتت منه خيالاته وغلبه النعاس وتداعى رأسه على صدره فأغمض عينيه وجعل يغط غطيطا حاداً مزعجا وهو يضم العصا الى قلبه ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة قريرة هانئة

وعندئذ لاح له طيف المعلم « ايبرو » القهوجى ، بعينيه الزرقاوين الجاحظتين ووجهه المغبر البنفسجى المستطيل الشبيه بالباذنجانة ، فجزع ماهو وحملق فى ايبرو فألفى عينيه تدوران وسمعه يصيح به قائلا :

— ماهو ! احذر . . تنبه ، انهم يختطفون منك فاتكة

فاختلج وقف شعر رأسه رعبا وصاح هو الآخر يقول :

— من ؟ من ذا الذى تجاسر ؟ . ما اسمه ؟ أجبنى !

فقال المعلم ايبرو وهو يرتجف : « هوسو » هو الذى اختطفها وهى الآن معه وقد ذهب بها الى داره

ولم يعد فى وسع ماهو أن يسمع شيئاً . وقعت هذه الكلمات على رأسه المحلوق المسرح وقع المطارق ، فزأر كالأسد الهائج وأمسك بالخنجر الكبير الذى خلفه له والده ، والذى كان يحتفظ به دائما تحت وسادته وصرخ قائلا :

— لن يفوز بها ذلك الوغد ! أنا أعرف انها لا تحبنى كما احبها وأنها كانت على وشك أن تقترن بغيرى ، ولكنى انتصرت أولا وسأنتصر آخرا ، وسأسحق ذلك الوغد الزنيم وأقتله فى بيته وأدحرج رأسه عند قدمى كما لو كانت رأس ديك

وكان « هوسو » مشهوراً عند أهل بلدته بقوة عضلاته وحدة طبعه وسوء خلقه واعتداءه على الضعاف البائسين ، وبطشه بالعذارى ، ولكن « ماهو » لم ينخلع ، ولم يضطرب ولم يتقهقر ، بل فتل شاربيه وعض على خنجره باسنانه واستجمع قواه وانطلق يعدو فى الشارع كمجنون

وعند ما أشرف على بيت « هوسو » استل خنجره من غمده وصاح قائلا : « أين أنت ايها الملعون ؟ دافع عن نفسك وتهيأ لاستقبال موتك على يدى »

ولما هم بدخول البيت فتحت فجأة احدى نوافذه وأطلت منها فاتكة الحسناء ، ورمقت ماهو بنظرة ملؤها الكبر والاحتقار وقالت :

— انت هو الملعون ! أما « هوسو » فانا أحبه . أحبه وأوثره عليك ...

فاحس ماهو كأن قلبه يذوب فى صـدره ، فشخص الى عروسه لحظة ثم قال :

— لماذا ارتضيت الزواج منى اذن ؟ أنت خائنة ، أنت غادرة

فابتسمت فاتكة ولم تجب ، ثم فتحت شفتيها وبصقت فى اتجاه ماهو ثم اختفت . وظهر فى مكانها شاربان كثيفان متهدلان تعلوهما عينان براقتان ، فاشهر ماهو خنجره ، ولـكن هوسو لوح بمسدسه فى الفضاء وقال له :

— اذهب من حيث جئت ، انها لى . واذا كانت قد خدعتك فذلك لأنها لا تحبك ولأنك لا تستحق منها غير ذلك ، اذهب والا جعلت رأسك مسكنا لرصاصى

فبهت ماهو وأحس أن القدر أقوى منه وأراد أن يكون مع ذلك بطلا شجاعا ، فألقى بالخنجر من يده وتقدم خطوتين وكشف لعدوه عن صدره وقال :

— اضرب إذن ! بما أنك انتزعت منى فاتكه ! فانتزع حياتى أيضاً ! . . أى معنى للحياة من دونها ؟

فدارت عينا هوسو فى محجريه وصوب المسدس الى رأس ماهو وقال : « حسنا ! . مكانك إذن ! »

وشعر ماهو أن ساعته قد دنت فجعل يقول مخاطبا نفسه :

— سأموت إذن ؟ . . سأموت من أجلها ؟ . . هل هى تستحق ذلك ؟ هل هى حقا من الحور الطاهرات ؟

وقبل أن يحرك هوسو اصبعه ويطلق الرصاص ، انطوى ماهو على نفسه وانـكمش وتضاءل ثم اطلق ساقيه للريح وجعل يعدو وسط المزارع والحقول ويخترق الحدائق والبساتين وهو يلهث ويستنجد

معتقداً أن هوسو يطارده ويوشك أن يضيق عليه السبل ليفتك به وعندئذ أحس ماهو صدمة عنيفة أيقظته من نومه بغته ففتح عينيه مذعوراً واذا به يبصر أمه واقفة بجواره تنهره وتصيح قائلة :

— كفى نوما .. لقد توافد المدعوون ، فهيا استعد .. أنسيت أن اليوم يوم عرسك ؟

فنهض ماهو وفرك عينيه بأصابعه ثم غسل وجهه ومشط شعره وتعطر وتطيب وشرع يرتدى ثوبه الجديد . وكان يسرع فى حركاته جهده ويحاول حصر ذهنه والتفكير فى مدعويه . وفى السعادة العظيمة التى تنتظره ، ولكن الرؤيا ظلت ماثلة فى مخيلته تعكر عليه صفوه وتنذره بمستقبل زوجى مشئوم . فماذا يفعل وكيف يطرد عنه هذه الرؤيا ؟ وماذا يصنع كى لا يصبح خيال أمس حقيقة الغد ؟

وأطرق لحظة ثم ارتعش ثم أشرق وجهه وقال :

— فاتكة لا تحبنى كما أحبها ! . . فلكى لا تخدعنى غداً يجب أن أحرص عليها ، أن أتفانى فى حبها ، أن أعمرها سعادة واخلاصا وهكذا لا تستطيع إلا أن تحبنى ! .

وابتسم لفكرته وخرج لاستقبال مدعويه

* * *

واقترنت فاتكة بماهو نزولا على إرادة والدها ، وكانت تعتقد أن حظها فى الحياة قد خاب ، ولكنها سرعان ما شعرت بأن فى زوجها ماهو من قوة الحب والتضحية ما يطوع لسلطانه أقسى امرأة ، فتغيرت نظرتها اليه وبدأت تحبه وأحست فجأة تلك السعادة العميقة التى تنشدها كل امرأة

ولم تعلم فاتكة أن الفضل الأكبر فى سعادتها يرجع الى حلم ماهو !

العاشقة المفتونة

للكاتب الالمانى

جوزيف فون مولر

يستطع « اريك » ان يفهم لماذا لا تحبه جرترود !

لقد كان شابا فى مقتبل العمر ، ناضر الوجه ، وسيم المحيا ، طيب القلب ، سخيا كريما ، يغفر الاساءة ولا يتردد فى الصفح عن ألد أعدائه ولا يعرف قلبه الطاهر النقى معنى الحقد ورغبة الانتقام

ولقـد أحب جرترود بكل قوى شبابه المضطرم ، بل لقد كانت أول من أحب ، فأخلص لها ، ووقف حياته عليها ، وودع ملذات الصبا جميعا وانصرف اليها ، وجعل يغدق عليها من ماله وعطفه وحنانه ما دهش له هو نفسه وما شعر حياله بانه انسان أرقى وأسمى وأنبل من الآخرين

أجل ، أحس اريك ان هذا الحب ضاعف خلاله الطيبـة حياة وقوة ، وزاده ايثاراً لمصلحة الغير على مصلحته الخاصة ، وهذب روحه ، وصقل أهواءه وميوله ، ورفع مستواه المعنوى فى نظر نفسه والناس

ولـكن أية فائدة من كل هذا ؟ . .

كان اريك المنكود الحظ ، كلما صفا قلبا واستدق احساسا وتطهر من شوائب القسوة والغلظة والملق والختل والنفاق ، أحس ان جرترود تبتعد عنه وتنفر منه وتتهكم به وتأخذ عليه نضارة عواطفه وطيبة قلبه وسذاجة مسلكه فى الحياة ! . .

كانت تعتبر الطيبة ضعفا ، والبراءة النفسية غباء ، والتجاوز عن الاساءة خنوثة ، والاحجام عن مقابلة الشر بالشر دليلا على نقص فى

الرجولة وانحطاط فى قوى الكبرياء والكرامة

فاريك كان انسانا مثاليا ، وجرترود كانت امرأة عملية ، بل كانت أنثى ، أنثى بكل ما فى هذه الكلمة من معانى الطمع والرغبة فى تحدى الحياة والاستمتاع بها ولو على أنقاض الفضائل التى يؤمن بها السذج الطيبون من أشباه الرجال . .

وكانت جرترود غانية مشهورة من غوانى برلين ، نشأت فى وسط فقير من أسرة قروية وضيعة ، وتاقت نفسها الى حياة الترف فى المدن ، ففرت الى العاصمة حيث عاونها حسنها الرائع وذكاؤها العملى على تصيد قلوب الشبان الموسرين الذين راقهم منها استخفافها بالحياة وميلها الوقح الجرىء الى العبث بكل فضيلة وكل عرف اجتماعى

فلما تعرف اليها اريك فى احدى صالات الرقص ذات ليلة ، راعه منها شعرها الاشقر المشوش ، وقامتها الافعوانية المديدة ، وبشرتها الوردية الفاتنة ، وتلك الجرأة الغريبة الشائعة فى عينيها الزرقاوين ، فأحبها لساعته وعقد العزم على انقاذها . انقاذها من البيئة التى تعيش فيها ، ومن المهنة الشائنة التى تمارسها بقوة حبه وقوة الطيبة الرائعة التى يحملها بين جنبيه !

ولم يجسر على الاقتران بها قبل أن يجرب أخلاقها ويمتحن سلوكها فاتخذها عشيقة له وشرع يبذل قصاراه فى تبديل شخصيتها وتغيير نزعاتها وتلطيف حدة ميولها وغرائزها وجعلها أهلا لأن تكون آخر الأمر زوجة له

ورضيت به جرترود عشيقا لا لحبه ولا لطيبته ولا لكرم خلاله ، بل لثروته الكبيرة ومكانته الاجتماعية الممتازة واتصاله بأرفع طبقة من عيون العاصمة ووجهائها

وكان اريك المثالى العاطفة والمنزع ، مشدوها بفكرته ، مسحوراً بغرضه ، مأخوذاً بمثله الأعلى ، يأبى عليه حبه العاصف المبرح إلا أن يجعل من جرترود الغانية سيدة فاضلة كاملة . فكان يغمرها عطفا وحنانا ، ويرشدها الى خلالها الفاسدة ، ويحاول تطهيرها منها ، ويظل الساعات الطوال يحدثها فى رفق وعذوبة عن مصير حياة التشرد والبغاء ، وعن قيمة الاخلاص فى الحب ، وقيمة الولاء لرجل واحد ، ولذة الحياة البيتية ، ومتعة الأمومة التى خلقت للفوز بها كل امرأة ذكية تعلم أن لا حياة لها ولا سعادة إلا فى دائرة الأسرة

وكانت جرترود تسمعه معجبة ببلاغة عبارته ، متأثرة برخامة صوته ، ولكنها افرط ما طبعت عليه من حب الحركة والضجيج والحياة فى المجتمعات الصاخبة وسط مظاهر اللهو والترف ، كانت تكره من عشيقها هدوءه واستكانته وغرامه بالعزلة وولعه بحياة البيت ، ورغبته فى الاكتفاء بالحب عن كل شىء ، وفى حبسها وحبس نفسه الأيام الطوال بين أربعة جدران

كانت هى تؤثر الحرية وهو يفضل نعمة السكون فى ظل الهوى

وهذا التناقض بين أخلاقه وأخلاقها ، عكر صفو اريك وسامه العذاب الوانا وأشعره بأن الحياة التى ينشدها مستحيلة التحقيق مع تلك المرأة

وأشد ما كان يثير حنق الشاب عليها ، أنها كانت مثال الجحود ونكران الجميل

كانت تغترف من ماله وتنفق بلا حساب دون ما عبارة شكر أو تقدير ، وكان يفيض من حبه عليها فلا تقابله بسوى التبرم والاستهزاء وكانت لاتكلف نفسها عناء التقرب اليه إلا عند ما تشعر بحاجتها الى

النقود ، وكانت لا تكاد تجتمع باصدقائها وصـديقاتها من العاطلين المترفين ومن الغانيات وانصاف الحرائر ، حتى تسخر بعشيقها على مرأى منهم ، ثم تقبل عليهم بجمع ميولها وعواطفها وتغض الطرف عن اريك وتتناسى وجوده وتكف عن ذكره كأنها لم تعرفه وكأنه لا يمت اليها بأية صلة

والغريب أن اريك كان متأهباً لاحتمال كل هذا لو أن جرترود ظلت مخلصة له . ولـكنها خانته ، خانته على مشهد منه ، خانته مع شاب من أصدقاء شـقيقه يدعى « هوجو » فى حفلة راقصة أقامها اريك ابتهاجا بعيد ميلادها ! . .

أبصرها قبيل انتهاء الحفلة تتدثر بمعطفها وتنسل مع هوجو بين أشجار الحديقة وتوسعه ضما وتقبيلا ثم تغادر البيت وتفر برفقته وهى تعلم علم اليقين أن عشـيقها واقف فى الشرفة يرقبها ويشهد احتضار غرامه بملء عينيه !

ولم يحرك اريك ساكنا ، لم يقتفِ أثرها ، لم يسرع اليها ، لم يرق ماء وجهه فى سبيلها

أغضى عينيه على القذى ، وكتم حبه فى صدره ، واحتمل الخيانة الوقحة النكراء ، وأبت عليه طيبته أن يفكر فى الانتقام منها كما أبت عليه كبرياؤه أن يفكر فى استردادها أو الثأر من عشيقها الجديد !

وعاش اريك يحب جرترود الخيالية ، يحب جرترود كما أرادها أن تـكون ، يحب فيها الصورة المثالية التى تمنى لو استطاع أن يخلعها عليها فلم يوفقه فى ذلك القدر المحتوم

وعاشت جرترود فى صحبة هوجو كما أرادت أن تعيش

فازت بالرجل الذى كانت تصبو اليه نفسها والذى تمثلت فيه أمام

بصرها المضطرب خلاصة قوى الرجولة وخصائص المرح والاستهتار والجرأة وتحدى الحياة

وكان هوجو على نقيض اريك

كان شابا فخوراً بنفسه مزهواً بجماله معتزاً بعضله المفتول ، خشن العاطفة صلب الارادة غليظ القلب ، لايخضع لقانون سوى قانون اللذة ، ولا يعرف من الحياة إلا أنها مجرد متعه ، ولا يحفل بفضيلة ولا يكترث لشرف أو ضمير

أحبت فيه جرترود ولعه الجنونى بالحياة ، واسترساله فى تلبية نداء غرائزه ، وانسياقه فى تيار المرح ينهب اللذات نهبا كأنما الموت يوشك أن يحرمه فى غد نعمة النور !

أحبت فيه صورة منعكسة منها ، وظلا حيالها . بل أحبته لأنه كان شريراً بقدر ما كرهت اريك لأنه كان نبيلا طيبا ! .

وكان هوجو يعذبها ويضطهدها فتتشبث به وتزداد اكباراً له . كان ينكل بها ويوسعها ضربا ولطما فتقبل يديه وقدميه شاكرة ،وكان يجردها من حليها ونقودها فتهبه كل شىء عن طيبة خاطر ولا تشكو ولا تتبرم

وكان كلما أسرف فىالتنكيل بها ، تضاعف حبها له واعجابها برجولته وشعورها بأن هذا الرجل القوى الصارم المستبد الغليظ هو الذى يعرف كيف يحبها وهو الذى يستطيع أن يحميها !

ولكن لكل شىء أجل . والمرأة مخلوق غريب يحتاج الى الاحساس بالعنف كما يحتاج الى الاحساس بالحنان والعطف

وعلى مر الايام ضاقت جرترود ذرعا باستبداد هوجو ، وأبصرت المال الذى ادخرته يتسرب منها ، وشعرت بأن الفاقة تهددها على يد

عشيقها ، فتاقت نفسها الى الدعة والسكون فى ظل الهوى النـاضر الساذج البرىء ، ففرت من بيت هوجو وعادت ذات مساء الى اريك .

وكان هوجو قد زهد فيها واستنفد ما كان معها من نقود ، وظل يستدين وينفق عن سعة وهو غير مكترث ، فلما أحس أن عشيقته أصبحت تشكو الحاجة ، وأن عجزه عن وفاء ديونه يوشك أن يؤدى به الى السجن ، صحا فجأة ولم يدر كيف يتخلص من مأزقه وأخيراً وبعد تفكير طويل خطر له أن يذهب فيطلب المعونة من غريمه اريك

ذهب هوجو الى اريك وهو يدرك تمام الادراك ان هذا هو الأمل الأخير وأن مستقبله أصبح ملك خصمه . ولـكن هوجو كان على ثقة من حب اريك العظيم لجرترود وكان قد عقد النيـة على الاعراض عنها وقطع كل صلة له بها وردها لأريك والاخلاص المطلق له اذا مد له يد المساعدة وأنقذه من ورطته

لم ينظر اريك الى كل هذا . أبصر نفسه حيال رجل تاعس شقى مطارد أحبته جرترود وسعدت معه ، فمن أجل جرترود ، ومن أجل هنائها ، أقرضه المـال الذى يريد وسعى له فوق ذلك حتى عينه فى منصب صراف فى أحد البنوك

واشترط اريك على هوجو كتمان هذه المساعدات عن جرترود ، فذهل الشاب وتملكته الدهشة وأكبر في اريك خلاله الرائعة وخجل من نفسه وعز عليه أن يمضى فى خيانة الرجل الذى أحسن اليه فيظل محتفظا بالمرأة الوحيدة التى يحبها ، فبدأ ينفذ خطته ، ويقابل الجميل بالجميل ، ويعرض عن جرترود ويفرط فى تعذيبها كى تسأمه وتعود من تلقاء نفسها الى اريك

وهذا ما حدث .

واستقبل اريك جرترود أحسن استقبال ، وقدر لهوجو اخلاصه وصدقه ، وعفا عن المرأة وتناسى خيانتها وخيل اليه أنه قد ينجح فى هذه المرة فى تبديل أخلاقها وجعلها الحبيبة الوفية ثم الزوجة الصالحة المبتغاة .

وأطرب اريك عودة جرترود اليه ، وكان من فرط حبه يخشى أن يفقدها ثانية ، بل لقد حدث فى نفسه تطور عجيب

برح به الحب ، وأمضه الخوف ، واستحوذ عليه القلق ، فبات يخشى اعتراض ارادتها ، ويخشى اسداء النصح لها ، ويخشى أن يحاول تبديل أخلاقها لئلا تنفر منه وتصدف عنه فيفقدها وهو لايكاد يصدق أن القضاء ابتسم له وردها فجأة اليه . . .

وهكذا تمادت جرترود فى غيها وتمادى اريك فى الاستسلام لها ، فكانت تغرر به وتستنزف ماله وتنفق دون حساب وهو يسخو عليها ويعطيها ، وجنون الحب يعصف به ، والهوى الجامح يختم على بصره ، حتى استفاق ذات يوم واذا بوكيل أعماله يصارحه بأن ثروته قد نضبت ، وان الافلاس يهدده ، وأنه لم يعد يملك سوى مبلغ خمسين الف مارك أودعه الوكيل فى البنك باسمه منذ اسبوع

أفاق اريك من نشوته ووطن العزم على الاقتصاد دون أن يخبر جرترود بجلية الأمر . ويا ليته كان أخبرها وحزم أمره وانفصل عنها ولكنه وقد رزح تحت ثقل الضربة شعر بحاجة شديدة الى عطف جرترود وحنانها ، فأحكم صلته بها وعاد يعظها ويرشدها ويحاول التهذيب من نفسها ووضع حد لملذاتها وتطهيرها من جنون الترف ورياضتها على الاقتصاد وتحبيب حياة البيت الهادئة الساكنة اليها

غير أنه لم يكد يرجع الى تمثيل دور الواعظ المرشد حتى برمت به جرترود وهفت نفسها مرة ثانية الى حب هوجو ! . . .

أخذت كفايتها اليوم من أفانين الترف ومن الاحساس بالحب العاطفي الزاخر بالحنان والعطف ، فأرادت أن تعود فتتذوق الحب الحسى القاسى المستبد العنيف بين أحضان هوجو !

وفجأة ، كعادة النسوة المتلونات ، اللواتى لا يكدن أن يخطر لهن خاطر حتى يتعلقن به ويتمادين فيه ، احتلت صورة هوجو خيال جرترود وسيطرت عليه واستقرت فى فسحاته ، فاستفاق حبها القديم واكتنفتها ذكريات الاضطهاد والتعذيب ، وتغلغلت فى بدنها ، وسرت فى عروقها مسرى السم ، واشعرتها بتلك اللذة العميقة القوية الشاذة التى كانت تضرم النار فى جوانحها كلما ضمها هوجو بين ذراعيه

وعندئذ وقعت الحادثة التى قوضت صرح حياتها وأفقدتها كل شيء

لم يستطع هوجو بعد إذ أنقذ من ورطته الاولى ، وفاز بمنصب يحسد عليه ، أن يحتفظ طويلا باستقامته . عاودته غرائزه كما عاودت جرترود ، فناضل ردحا من الزمن ولكنه سرعان ما ارتمى فى حياة اللهو والفجور وسرعان ما أحس اضطراره لمد يده والعبث بالمال الذى ائتمنته عليه ادارة البنك

بدد مبلغا كبيراً على الخمر والميسر والنساء ، فتنبه أحد زملائه المخلصين الى النقص الملحوظ فى كشوفات الحساب ، فلفت نظره الى الخطر ، ولما الفاه يائسا عاجزاً مستسلما ، وكان واقفا على صلته القديمة بجرترود . ذهب اليها من تلقاء نفسه والتمس منها انقاذ صديقها وألح فى الرجاء ذاكراً أن موعد جرد الخزانة السنوى قد أقبل

وقع هذا النبأ على جرترود وقع الصاعقة

وقع هذا النبأ في نفس الوقت الذى كان فيه هوجو حلم جرترود وموطن خيالها ومعقد أملها وغاية حبها !

فلو فقدت هوجو فأية حياة تكون حياتها مع اريك ، وأى ضجر ينتظرها ، وأى سأم ، وأية كآبة ، وأى هم وشقاء ؟ !

ان هوجو هو نداء بدنها وهو رمز سعادتها وهو الرجل الوحيد الذى أحست الآن فقط انها لم تحب سواه وأن القدر قد اصطفاه لها من دون الرجال جميعا

وإذن يجب أن تتقدم ، يجب أن تعمل ، يجب أن تستنهض عوامل جرأتها الكامنة ، يجب أن تنقذه مهما كلفها الأمر

ولم تتردد ولم تتباطأ ولم تنعم النظر فيما هى مقدمة عليه ، ولم تكد تخلو بنفسها فى البيت حتى أسرعت الى مكتب اريك وانتزعت من أحد أدراجه دفتر الشيكات وكتبت شيكا بمبلغ اربعين الف مارك وهو المبلغ الذى اختلسه وبدده حبيبها هوجو

ثم فتحت درجا آخر وانتزعت منه بعض صور من خطابات كان كان قد أرسلها اريك الى وكيل اعماله ، ثم جعلت تنظر فى توقيع عشيقها وتتأمله وتحاول تقليده . ولما لاح لها أنها أصابت الهدف ، زورت الامضاء ووقعه على الشيك ونهضت من فورها فارتدت أجمل أثوابها ويممت وجهها شطر البنك

وكان يعرفها الموظفون فحيوها باحترام وصرفوا لها المبلغ ، فدست الاوراق المالية فى حقيبة يدها وانصرفت مرفوعة الرأس ثابتة الخطى واتجهت صوب المنزل الصغير الذى يقطنه هوجو

ولم يكن الشاب قد غادر المصرف الآخر الذى يعمل فيه ، فانتظرته

فى حجرة الاستقبال وصدرها يعلو ويهبط وبصرها الزائغ المضطرب لا يفارق صورته المعلقة فى الحائط ضمن اطار بديع مذهب الاطراف

وعند مادخل هوجو ووقعت عينه عليها ، قطب حاجبيه ، وأشاح بوجهه قليلا ، ثم حياها تحية أدب متحفظة فاترة . ولكنها قامت اليه وبسطت ذراعيها واحتضنته وجعلت تضمه وتقبله وتتحسس بيدها المرتعشتين بدنه ، وهى تحدق اليه تحديق فرح ذاهل مخبول وقد اختنق صوتها وفاضت من عينيها الدموع

وتملص الشاب منها ونحاها عنه ثم انتهرها وأمرها بالعودة حالا الى منزل اريك ، غير انها تعلقت به ، وفى صرخة نصر وكبر وابتهال فتحت حقيبتها وأخرجت رزمة الاوراق المالية وقدمتها اليه فى ابتسامة ذليلة ملتمسة عابدة

تراجع هوجو مستغربا وأخفى اضطرابه واستفسرها عما تقصد بهذا العمل ، فلامته على اعراضه عنها ، وعدم تفكيره فيها ساعة الشدة وانبأته بما كان من زميله المخلص ، وكيف ذهب اليها ، وأطلعها على الحقيقة ، وناشدها الغوث والنجدة

وكانت تتكلم فى حماسة العاشقة المفتونة المغامرة ، والأوراق المالية ترتعش فى يدها ، وهوجو يرمقها وهو لا يكاد يصدق سمعه وبصره

وانقبض قلب الشاب فجأة وهاله أن تحصل جرترود بين يوم وليلة على كل هـذا المبلغ ، فجالت فى ذهنه شتى الخواطر ، وتمثل صديقه اريك ، وخشى أن تكون جرترود قد أفرطت فى استغلال حبه واحتالت عليه وابتزت منه هذا المال فى الساعة التى يعرف هوجو ان اريك يعانى فيها أزمة مالية قد تقوده بين لحظة وأخرى الى هاوية الافلاس

ولذا تبرم هوجو بجرترود ، وأبى قبول المبلغ ، ولـكنها جاهدت وكافحت وبكت وانتحبت ، وصبت فى صوتها المتهدج كل قوى الاقناع وأقسمت أغلظ الايمان أن هذا المال هو مالها وأنها كانت قد ادخرت جزءاً منه ثم أضافت اليه ما حصلت عليه من رهن حليها ومجوهراتها

وكان الصدق يدوى فى صوتها الغائر الأجش ، وفى فرحها الداهل المخبول ، وفى عينيها المبتهجتين المتألقتين ، وكان هوجو حائراً مضطربا ينظر اليها ويتخبط بين حاجته الى المال وبين رغبته فى الاستمرار على قطع كل صلة له بهذه المرأة

واخيراً ، وبعد الحاح شديد منها ، ووعد قاطع بأنها لن تحاول استغلال هذه المساعدة فى سبيل الاتصال ثانية به وخيانة اريك ، أقنعته أن حبها الصادق القديم له ، أصبح حباً عميقا نزيها قويا ، وأن هذا الحب هو الذى دفعها الى الاسراع لنجدته

تجاه هذا الولاء الخالص ، تأثر هوجو وقبل المبلغ ، فأشرق محيا جرترود وارتمت عليه وضمته في عنف الى صدرها وطبعت على فمه قبلة محمومة ، فأقصاها عنه فى رفق وقبلها فى جبينها وقادها حتى الباب وهو لا ينفك يردد عبارات الشكر ويقول إنه سيبذل قصاراه لوفاء دينه وأنه نادم كل الندم على ما فرط منه وأنه لن ينسى لها هذا الصنيع ابداً

وشاء القدر فى نفس اليوم أن تـكشف ادارة البنك الذى يعمل فيه هوجو ، الفارق الهائل بين ما هو مدون فى دفاتره وبين المال الذى فى عهدته

فاخفى المدير الأمر وأسرع فخاطب صديقه اريك بالتليفون وأبلغه أن الموظف الذى رعاه وأوصى به وأثنى عليه وكان واسطة فى الحاقه

بهيئة البنك واسناد منصب خطير اليه ، قد اختلس مما فى عهدته مبلغاً حسيما من المال

بهت اريك وتملكه الذعر واستهول عودة هوجو الى الانسياق فى تيار غرائزه ، وأحس أنه مسئول أدبيا عن تصرفات صديقه ، فارتدى للفور معطفه واختطف قبعته ، وإنه ليهم بالخروج واذا بساعى البريد يسلمه مطروفا بعثت به اليه ادارة البنك الآخر الذى يودع فيه أمواله

افتضه بعصبية ولهفة ، فوقع بصره على بيان جاء فيه ان مدام جرترود قد سحبت باسمه مبلغ أربعين الف مارك ! . .

ذهل اريك وانتابه دوار واختلطت الافكار والصور فى ذهنه وحار فى تعليل مسلك جرترود وجعل يتذكر متى كتب ذلك الشيك وأين كتبه ولأى غرض ؟ . .

وأعياه التفكير ولكنه لم يخطر على باله أول الامر ان هناك جريمة ، وان معبودته جرترود قد تكون مجرمة مزورة !

وخانته قواه وارتمى على مقعد بقرب الباب والعرق يتصبب من جبينه . ولما أغمض عينيه واستجم قليلا ، وشرع يفكر ويتذكر ويستبطن فى هدوء بواطن هذا الحادث المروع ، انتفض فجأة وجحظت عيناه وجال بذهنه خاطر فظيع ، فهب من فوره وتسلق الدرج ، وأسرع الى التلفون . واستفسر مدير البنك الذى يعمل فيه هوجو عن مقدار المبلغ الذى اختلسه ، فأجابه المدير بأن المبلغ هو أربعون الف مارك ، ولكن هوجو قد جاء منذ لحظة ورده الى خزينة البنك ، فلم تبلغ الادارة البوليس واكتفت بفصل هوجو من هيئة موظفيها ! . .

فوقعت السماعة من يد اريك وتهاوى على نفسه واعتمد بيده على حافة مكتبه ثم تداعى وسقط على المقعد ، وقد أيقن ان جرترود ، جرترود التى أحبها أعظم حب ووقف عليها شبابه وقلبه وثروته وحياته ، ولم يضن عليها بشيء ، ومتعها بكل شيء ، وغفر لها سيئات الماضى وحاول ان يجعل منها في يوم من الايام زوجته ، جرترود هذه سلبت البقية الباقية من ماله ، وأنقذت بها عشيقها القديم ، عشيقها الشبيه بها أخلاقا وطبعا وعاطفة وروحا ، عشيقها الذي لم تحبب سواه والذى لم تخلص لغيره ساعة واحدة !

وتمثلت لاريك هاوية الافلاس الحالكة ، وشعر بأنه قد فقد كل شيء ، ماله والمرأة التى يهوى ، فطمر وجهه بين راحتيه واختلج وجعل يبكى بكاء الاطفال

وانقضت فترة وهو جاثم في مكانه محدودب الظهر متهالك منسحق، وبغتة رفع رأسه ولمعت عيناه ومد يده بالرغم منه وتناول سماعة التليفون وخاطب هوجو فى منزله ورجاه ان يحضر اليه حالا ..

ونهض وجعل يذرع الغرفة وهو يلوى يديه حنقا ولوعة . وانقضت فترة أخرى ، ثم فتح الباب ودخل هوجو مكفهر السحنة ضامر التقاطيع شارد البصر . فلم يكد يبصره اريك حتى تقدم اليه وأمسك بذراعه وقال بصوت خافت أشبه بهمس :

— أعرف كل شيء !

فتقهقر هوجو ورفع رأسه وقال :

— ليس لك ان تخجل منى يا أحب الأصدقاء الى أو تأسف على عنايتك اياى ، فأنا لم أختلس ، والمبلغ فى خزينة البنك

فرمقه اريك بنظرة فاحصة ثم قال هازاً رأسه :

— ولـكن جرترود اختلست ! . . زورت توقيعى ! . .

وألقى أمامه بالبيان الذى وصله من ادارة البنك ، ففغر هوجو فاه كابله وجعل يحملق فى الارقام ويردد كالمجنون :

— أربعون الف مارك ! . . أربعون الف مارك ! . .

وعندئذ أقبلت جرترود ، اقبلت تتهادى فى ثوبها الحريرى الجديد ، فلم تكد تبصر هوجو حتى شهقت وجمدت فى مكانها

فانقض عليها الشاب وهو لا يعى ، وفى سورة الغضب والاستنكار ، قبض على ذراعيها وجعل يهزهما ويصيح قائلا :

— من أين جئت بالمال الذى أعطيتنى اياه ؟ . . تكلمى .. أجيبى ..

فلم تستطع الـكلام وظلت مغمضة عينيها وبدنها يتأرجح وأنفاسها تتعاقب ، فعيل صبر هوجو واستفظع جريمتها وتصور هول الـكارثة التى حلت على يدها بالصـديق الطيب السمح النبيل ، فثارت ثائرته وفقد رشده وجعل يصرخ قائلا :

— أنت كاذبة ! .. أنت مجرمة ! .. أنت خائنة ! . .

فرفع اليه اريك عينيه المتقرحتين وقال :

— كان ذلك من أجلك ! انها تحبك وحدك ، فخذها !

فأجابه وهو يهدر قائلا :

— كان أحب الى ان أطرح فى السجن من ان أكون السبب فى خرابك !

فذهلت المرأة وشخصت الى هوجو ولم تتمالك نفسها فقالت :

— أإلى هذا الحد تفضل اريك على نفسك ؟

فأجاب قائلا :

— وعليك أنت أيضا !

وجمحت به أعصابه فأردف صائحا :

— لا أريدك ! . أمقتك ! . أكرهك . . . أكرهك على قدر الأذى الذى ألحقته بأريك ، على قدر الألم الذى يرزح تحته الآن هذا الرجل الذى طالما أحسن اليك وإلى ! اذهبي !

فمادت الارض بجرترود ، وأظلمت الدنيا فى عينيها ، وأحست احساسا عميقا بالغا أن عظم حبها لهوجو قد تحطم على صخرة صداقته وحبه لأريك ، فتملكها يأس فظيع ، ولم تستطع أن تفهم كيف يؤثر رجل على امرأة رجلا ، وشعرت بأنها هى الأخرى قدفقدت كل شىء ، فتحاملت على نفسها جاوة قدميها ثم استدارت وخرجت دون أن يلقى عليها اريك نظرة !

* * *

وفى صبيحة اليوم التالى وجدت جرترود منتحرة فى غرفة فى أحد البانسيونات

بطولة أم

للكاتب النمسوى

ستيفان برونشتاين

تمتاز مساكن العمال فى احدى مناطق فيينا برحابتها وجمالها ودقة صنعها وتوافر أسباب الراحة فيها . فالحدائق الغناء تكتنفها ، ودور المسارح والسينما على مقربة منها ، ورياض الاطفال تحيط بها ، وطابع النظافة والأمن يتمثل فيها ويبعث فى نفس الناظر اليها مختلف عوامل الاكبار والتقدير والاعجاب

وكانت احدى نقابات العمال قد شيدت هذه المساكن قبيل عهد المستشار « دلفوس » وكان العامل النشط « كارل » قد ساهم فى تشييدها وبذل قصاراه فى جمع المال لها ، وظل يخطب فى العمال أسابيع متوالية ، يستنهض هممهم ويبعث النخوة فى صدورهم ليجود كل منهم بما يستطيع من مال فى سبيل تحقيق هذا المشروع

وكانت قد اختصت كل أسرة تنتمى الى النقابة بمسكن مؤلف من ثلاث حجرات أو أربع تحسدها عليه معظم الاسرات المنتمية الى الطبقة المتوسطة فى البلاد الأخرى

وأما النظام الذى كانت تتبعه النقابة فيما يتعلق باسكان العمال ، فكان يفرض اقتطاع جزء من مرتب العامل مقابل تمتعه بمنزل أنيق نظيف وتمتع أبنائه بالتنزه فى الحدائق أو اللهو فى رياض الاطفال

وكان مما أثار اعجاب الناس باعمال تلك النقابة فى تلك المنطقة ، أنها كانت ، بفضل ما ادخره صندوقها من مال ، تحتضن ابناء العمال الذين فقدوا آباءهم ، وتنفق عليهم وتعنى بشئون تربيتهم وتعليمهم ، وتقيهم شر الفاقة والتدهور والانحطاط

وما كان اسعد كارل يوم شيدت هذه المساكن ، ويوم وافق مجلس النقابة على مشروع احتضان اليتامى من أبناء العمال ، فقد غمره الفرح وأحس ان مثلا من أمثلته العليا قد تحقق ، فأخذ يلب ويرقص ويغنى ، وزوجته « نورا » تنظر اليه معتزة معجبة وأطفاله الثلاثة يهللون ويهتفون

وكان كارل في الخامسة والاربعين من عمره ، مديد القامة ، مفتول العضل ، أزرق العينين ، تنم نظراته المتقدة عن ذكاء خارق وعزم قوى . وأما زوجته نورا فقد كانت امرأة هادئة الطبع ، سليمة الأعصاب ، مليحة الوجه ، ذات جبهة مشرقة لامعة ، وشعر أشقر مموج ، ورقة أخاذةساحرة ، وكفاية نادرة فى ادارةشئون البيت

ولقد تزوجت نورا بكارل عن حب مبرح شديد ، ولكنها عندما اصبحت أماً ، تمكنت بفضل صفاء ذهنها ومنطق تفكيرها وعميق حكمتها ، من التوفيق بين حب الزوج وحب الاطفال ، فكانت مثال الولاء والاخلاص لقرينها ، ومثال التضحية اليومية الرائعة فى سبيل أبنائها

فلما كان كارل يدخل البيت عند المساء منهوك القوى من جراء عمله الشاق فى مصنع الحديد ، كانت تخف نورا لاستقباله متألقة الوجه بسامة الثغر وحولها أطفالها الثلاثة يضجون ويصفقون ، فيقبل كارل امرأته ويحمل أطفاله على ذراعيه وكتفه ، ثم يتوسط البيت وهو جذلان ، ثم ينضوعنه ملابسه ، ثم يجلس الى المائدة ، ويظل ينقل طرفه فى مسكنه النظيف فيغتبط وتملأ صدره نشوة الفخر ويحس فى تلك اللحظة قيمة الجهود الجبارة التى بذلها العمال اخوانه لمنحه مثل هـذا المنزل الهادىء النظيف المريح

وهكذا عاشت نورا برفقة زوجها كارل بضعة أعوام ، فى هناء لم تعكره أية سحابة

كان العمل متوافراً ، فشبح العطل بعيد ، والأجور تدفع بانتظام كل أسبوع ، والأطفال أصحاء وكارل قوى نشط ، ونورا قريرة النفس ساكنة العواطف مطمئنة القلب لا تحلم بشيء ولا تصبو الى شيء

ولكن ما حيلة نورا وكارل فى الأحداث السياسية والأزمات الاقتصادية وتقلبات أنظمة الحكم ومنازعات الأحزاب ، وما يترتب على كل هذه التيارات من اضطراب فى الحياة العامة ، وهم فى الحياة الخاصة وضنك وبؤس وشقاء ؟ . . .

عصفت الأزمة بأسرة كارل كما عصفت بغيرها من الأسر ، ففصل بعض العمال من المصانع ، وخفضت أجور البعض الآخر ، ولاح شبح العطل فى سماء فيينا كأنه شبح الموت يحمل فى يده منجل الحصاد

وشاء الحظ أن يخفض مرتب كارل فقط ، فلم تشك نورا ولم تتبرم بل صبرت على ما حل بها وخفضت هى الأخرى من ميزانية بيتها وافتنت فى التوفير والاقتصاد ، وكانت تحرم نفسها وتحرم فى بعض الأحيان قرينها كي لا تشعر أبناءها الثلاثة بوطأة الضيق وذل الحاجة

ولم يكن فى وسع كارل إلا أن يقتدى بزوجته ولكنه إذ أبصرها تبالغ فى حرمان نفسها ضرورات الحياة ، عز عليه ألا يطاولها ، فكان يسرف فى حرمان نفسه هو أيضا ، فكانت بين الزوجين مباريات فى الحرمان فاجعة غريبة ، رفعت من قدريهما فى عيون الأصدقاء والزملاء وجعلت من أخلاقهما النبيلة مثلا يحتذى

وألف الزوجان هذه الحياة ، فكان كل منهما يغتصب الفرح

اغتصابا ليقدمه هدية للاطفال . وكان الأطفال قد شبوا عن الطوق ونموا وترعرعوا ، فكان أكبرهم يحس ويفهم ويفكر ، فيحاول رياضة نفسه على ذلك الحرمان الذى أصبح شعار البيت

ومع ذلك فقد كانوا سعداء . كانوا يتأملون فى حياة العمال المتعطلين ، فتتعزى قلوبهم وتلطف السلوى بعض ما فى صدورهم من حسرة على الماضى الجميل

على أن هذا العزاء لم يكن ليصرف نظر كارل عن رفاقه التعساء ، فقد كان يقتطع جزءاً آخر من مرتبه ويتبرع به لصندوق النقابة الخاص بالمتعطلين

ولم تستنكر منه نورا هذا العمل ، بل على النقيض طالبته به وشجعته عليه ، يقينا منها أن فى هذا التضامن والتعاون حياة النظام النقابى

واستطاعت نورا مكافحة الضيق ومجالدة الأزمة والتغلب عليها ، ولكن كيف تستطيع نورا مكافحة القضاء والتغلب على المرض ؟

لم تفكر فى هذا الطارق اللعون ، لم تحسب حسابه ، لم تعد له العدة . وهل كان فى مقدورها أن تفعل ومرتب زوجها أصبح ضئيلا ، ومطالب الصبيان ازدادت وتنوعت ، ومستوصف النقابة المتواضع الذى انقطعت عنه كمية كبيرة من التبرعات ، قد ضاق ذرعا بمرضاه ، ولاسيما أصحاب الأدواء المستعصية منهم ؟

أصيب كارل بداء القلب ، فبدأ يشعر بثقل وطأة العمل وبالحاجة الى الراحة . وبدأ يتغيب ويستجدى الاجازات ، ويقضى الساعات الطويلة فى الحدائق كاسف البال حزينا . غير أن معظم اجازاته كان لا يحتسب عليها أجر ، وكانت نورا مجبرة على انفاق كل ما ادخرته من

دريهمات وعلى بيع ما يمكن الاستغناء عنه من أثاث البيت لتجتاز هذه الأزمة الثانية وتطعم أبناءهاوتنقذ زوجها من براثن الموت

ولـكن الموت أنشب مخالبه ذات مساء فى صدر كارل ، فذهب فريسة نوبة عاجلته عقب عودته من المصنع حيث أقبل على العمل مغامراً بصحته متحديا أمر الطبيب مدفوعا باخلاصه العميق لزوجه وأولاده وشفقته العظيمة عليهم

واسودت الدنيا فى عين نورا ، واستفاقت واذا بها تبصر نفسها وحيدة فى هذه الدنيا تحمل على منكبيها ثلاثة أطفال !

***

وبدأت نورا المنكودة الحظ حياة الجهاد ! . .

لم تـكفها الاعانة الشهرية التى قررتها لها النقابة ، فعهـدت بأولادها الى جارة لها نظير مساعدة مالية بسيطة ، وشرعت هى تبحث عن عمل

ويا له من طريق وعر ، جم الشعاب ، كثير المضـبات ، محفوف بالمخاطر ، ذلك الذى سلـكته نورا ! . .

كانت تغادر بيتها فى ساعة مبكرة ، وتسرع الى مصنع السجائر القريب من حيها ، وتقف الساعات الطوال بين صف طويل من العاملات والعمال المتعطلين ، وتظـل ترمق بعينيها المتقدتين اللوحة الـكبيرة المعلقـة على باب المصنع ، والتى تعلن حاجة المصنع الى عمال موقتين بأجر يومى ، فاذا ما انفرط مقدم الصف وأوشك أن يقرب دورها ، نزعت اللوحة فجأة وأغلق باب المصنع واكتفت الادارة بمن سبقوها من عمال وعاملات

وعندئذ ينسحق فؤاد نورا ويستحوذ عليها يأس ممزق ، وتندفع

الى الشوارع مع النسوة المتعطلات أمثالها وهن يهددن ويزمجرن ، وتأخذ فى طرق أبواب المصانع الاخرى ، باحثة عن أى عمل بالغة ما بلغت ساعاته وكائنا ما كان الاجر المعين له ! ..

وكان شحوب لونها وضمور تقاطيعها وظل الأسى المنسكب عليها ، وفتنة بصرها الشارد ، وهيبة جبينها العريض ، وروعة ابتسامتها الكليلة المنطفئة ، كل ذلك كان يطمع فيها الرجال ، فيتحرشون بها ، ويقتفون اثرها ، ويطاردونها ، وهى تفر منهم ، والذعر يملأ قلبها ، ونفسها العزيزة الشامخة تأبى ان تفرط فى عرضها ، ولو كان فى ذلك حياة أبنائها !

وتصيدها ذات يوم مدير احدى الشركات وأعجب بجمالها وراقه منها ذلك الدلال الحزين الشائع فى كل حركة من حركاتها ، فلوح لها بالامل المنشود ، وأسند اليها منصبا فى شركته ، ودربها على معالجة الآلة الكاتبة ، وبعد ان طمأنها الى مستقبلها وألقى فى روعها انه سوف يتعهدها ، ويصل بها الى ما تستحق من رفاهية وهناءة ونعيم ، ساومها فى صراحة على عرضها ، فتأبت كعادتها ، فطردت من الشركة فى اليوم التالى ،وارتدت الى حياة الطواف والتجول والتشرد والوقوف بأبواب المصانع على غير جدوى

وكان يتفق لها ان تشتغل يوما ثم تتعطل أسبوعا ، فتحار فى أمرها ولا تدرى كيف تعول أبناءها ، فتبيع القطعة تلو القطعة من أثاث بيتها ، وتشد النطاق حول بطنها ، وتبالغ فى حرمان نفسها ، وتعتصر عقلها ذكاء وتحايلا فى سبيل ابتكار ضروب خارقة من الاقتصاد تمكنها من اطعام أبنائها بأيسر النفقات وأقل التكاليف

وهزل الاولاد وغارت عيونهم ، وزايلهم مرح الطفولة المعهود ،

وبدوا فى ثياب رثة ، وكآبة ساهمة مؤلمة ، ومظهر بائس يقطع نياط القلوب .

تجاه هذا الضنك الذى يوشك أن يستفحل وينقلب الى جوع مفترس ، عادت نورا فاستصرخت النقابة العون والرحمة

التمست ، توسلت ، انتحبت ، أرادت ان تنزل عن الاعانة مقابل الحصول على عمل دائم ، أو الفوز بمساعدة مالية أخرى ، ما دام العطل يعصف بها . وما دام عليها ان تقوم بأود ثلاثة أطفال

ولكن النقابة أيضا أوصدت الباب فى وجهها !

كانت الأزمة قد اشتدت وتضاعف عدد العاطلين وازدادت واجبات النقابة ، وكف أصحاب المصانع عن استخدام النساء تخفيفا لازمة العطل بين الرجال

ولم يكن أبناء نورا يتامى الأب والأم كى تعني النقابة بأمرهم وفق ما يفرضه عليها قانونها ، ولم تكن نورا امرأة طاعنة فى السن أقعدتها الشيخوخة عن البحث عن عمل فى غير دائرة المصانع ودائرة اختصاص النقابة . لهذا كله عادت نورا واهنة ذليلة خائبة . وقد شعرت أبلغ شعور وأوفره بأنها بين أمرين : إما أن ترضى بهذه الحياة وما تحمل فى اطوائها من استهداف يومى لخطر الجوع والمرض والموت ، وإما أن تنزل عن ابائها وتضحى بعفتها ، وتبيع عرضها فى سوق الدعارة والفجور ! . .

آثرت الطريق الأول

اشتغلت مربية أطفال ، ثم خادمة ، ثم غسالة ، ثم بائعة أزهار . وكانت تتنقل من مهنة لم تألفها الى مهنة جديدة عليها ، سرعان ما يظهر عجزها فيها فتفصل منها . وكان من جراء تلك الحيرة وهذا

التنقل المصحوب بالعطل الطويل ونفاد كل دريهم ادخر فى أثناء العمل، أن اضطربت حياة الاطفال وانحط مستواها انحطاطا مروعا لفرط ما كانت تتجاذبها، عوامل الاستقرار تارة، وعوامل البؤس والفوضى تارة أخرى، فاستهولت نورا هذه النهاية الفاجعة، وثارت ثورتها، وعز عليها أن تجاهد وتكافح وتمارس أوضع المهن وتشتغل أكثر من اثنتى عشرة ساعة فى النهار. ثم لا تستطيع بعد هذا كله أن تطعم أولادها حتى الشبع، وتكسوهم بثياب نظيفة، وتحسن علاجهم عند المرض، وترد اليهم ولو قسطا يسيراً من تلك البهجة الطلقة القديمه التى يتحرقون عليها اليوم!

أجل، فى وسع نورا أن تطعمهم فقط، وتكسوهم فقط، الطعام الضرورى والكساء الرث، أما الشبع وأما النظافة وأما العلاج الصالح فتلك ألوان من السعادة تريدها نورا لابنائها ومن المحال عليها أن تستطيع تحقيقها!

ولكنها تريدها، وبالرغم من شقائها تطمع لهم فيها، تطمع لهم فيها وهى تعلم علم اليقين أن هذا الحلم ضرب من الجنون!

أى جنون؟.. ان رضاها بمثل هذه الحياة التاعسة لاطفالها هو الظلم الصارخ وهو الجنون بعينه!..

***

واستحوذت عليها فكرة استغرقت اهتمامها وخالطت عواطفها وحالت بينها وبين الراحة والهدوء

وتمكنت منها هذه الفكرة فتبدلت أخلاقها تبدلا فجائيا وزايلتها كآبتها وتألق محياها وعادت ابتسامتها المطمئنة القديمة ترف على شفتيها الحراوين الدقيقتين

وساد الصفاء نفسها ، وتملكها شبه اشراق صوفى ، فكانت لا تسرف فى الحركة ولا تسرف فى الكلام ولا تسرف فى الضحك ، وتعيش متجهة القلب والروح صوب عالم سرى يحف به الجمال والنور

وزهدت فى الدنيا ، وعافت ملذاتها ، وقطعت على نفسها عهداً مقدسا بضمان حياة الأمن والاستقرار لأبنائها !

* * *

وهدأت من سورتها وانتظرت . انتظرت حتى أقبل يوم العيد ، عيد الاطفال اليتامى الذى تحتفل به النقابة كل عام وتحشد فيه طائفة من أروع الالعاب وتدعو المحسنين لمشاهدته والتبرع لصندوقه بما تجود به اليد

وكان ذلك فى يوم أحد . فى يوم من أيام الخريف الوسنانة الفاترة التى تغرى بالتأمل وتبعث على التمادى فى أحلام اليقظة ، وتدفع بالحزانى الى التماس الفرح من طريق الاسترسال فى الحزن والألم

ولم تكد تشرق شمس ذلك اليوم المرتقب ، حتى هلل الاطفال الثلاثة واغتبطت نفوسهم وارتدوا أسمالهم البالية وطالبوا نورا بالوفاء بوعدها واصطحابهم لمشاهدة الالعاب

ولفت نورا وشاحها الاسود حول وجهها ، وألقت معطفها على كتفى ابنتها الكبرى التى لم تجاوز الثامنة من عمرها ، وانطلقت حيث جارتها فأوصتها بالاولاد خيراً ، ثم عادت الى أبنائها وهى تضحك وقد لمعت عيناها لمعانا فاتنا عجيبا . وخرج الأربعة لمشاهدة العيد !

وذهل الاطفال إذ أبصروا الخيول الخشبية تدور فى الحلبة الكبيرة ، والأراجيح تقذف بركابها الى عنان السماء ، والقوارب تشق عباب نهر جائش مزبد والبساط السحرى يحمل الناس الى برج

شاهق عظيم ، والطبلية لا تنفك تدور وتلق على الارض بمن تحمل من رجال ونساء وأطفال يقع بعضهم على بعض صائحين حانقين مقهقهين !

ذهل الأولاد وأشرقت وجوههم ، ودب النشاط فى أبدانهم واحتواهم الفرح ، فأحاطوا بنورا واشرأبت اليها أبصارهم المتوسلة وأعربوا فى خوف وقلق عن رغبتهم الحارة فى الاشتراك فى العيد

فأطرقت نورا برأسها لحظة ، ثم ابتسمت ، ثم انحنت على ابنها ، وفى صوت ساحر ملائكي رخيم ، قالت وهى تحكم عقد وشاحها الاسود الذى عبث به الهواء :

— ليزا ، راقبي أخويكفي أثناء لهوهما . أما أنا فيجب ان اذهب .

— الى أين يا أماه ؟ ...

— يجب ان أعزى مدام اوجستا ، فقد توفى ابنها منذ أسبوع كما تعلمين

— الآن يا أماه ؟ . فى مثل هذه الساعة ؟ . .

— يجب يا ابنتى . واذا عدتم الى البيت ولم تجدونى فاذهبوا الى منزل المسيو ريتشارد رئيس النقابة . . سأكون هناك لأمر يتعلق بمصلحتك انت وأخويك

وأشاحت نورا بوجهها وارتجفت أهدابها ، ثم تحولت الى ابنائها وانحنت عليهم وقبلتهم الواحد بعد الآخر . ولما عانقت ابنها الصغير هنرى اختلجت بعض الشىء وتقلصت شفتاها ولكنها تمالكت نفسها وابتسمت ، واخرجت من حقيبة يدها مفتاحا وناولته لليزا وقالت :

— هاك مفتاح البيت ! راقبي أخويك !

وتراجعت نورا وهى تحدق الى ابنائها ، ثم لوحت لهم بذراعها تحييهم ، ثم جمدت فى مكانها لحظة ، ثم رمقتهم بنظرة أخيرة واستدارت

وجعلت تجر نفسها جراً وقد اختلج بدنها وطغت عواطفها وخنقتها الدموع

واحست نورا أن قوة هائلة تجذبها الى الوراء فاتأدت وحاولت أن تتلفت ، ولكن تياراً من العزم الجامح سرى فيها ، فاستجمعت قواها وعضت بأسنانها على طرف وشاحها واستطردت السير

وتركت ميدان الاحتفال ، وتوسطت الشارع ، واجتازت بعض الاحياء الآهلة بالسكان ، ثم عرجت على طريق يفضى الى خارج المدينة وهناك وقعت عينها على النهر الصغير الذى فكرت فيه بالأمس طويلا ، فاتجهت نحوه ، وانحدرت من فورها الى حفته ، ودون تفكير أو تردد أو تلكؤ ، رفعت ذراعيها والقت بنفسها فى النهر !

* * *

وفى صباح اليوم التالى علم المسيو ريتشارد بمصرع مدام كارل فلم يستطع إلا ان يدرج أسماء ليزا وماكس وهنرى فى قائمة اليتامى من ابناء العمال

وهكذا تحقق حلم نورا واحتضنت النقابة اولادها !

الانقلاب

للكاتب البولونى

انطونه سيكورسكى

غلقت مدام ايفون ابواب البهو بيدمرتعشة،ثم كرت راجعة حيث كان يجلس المسيو ايفان طبيب العائلة . وعندئذ أجفل الطبيب وأشاح بوجهه، فابتسمت المرأة ابتسامة خبيثة وجلست على مقعد تجاهه وقالت وهى تحدق اليه كأنها تحاول النفاذ الى أعماق نفسه :

— اراك منذ اسبوع مضطربا كل الاضطراب يا مسيو ايفان . . فما بك ؟ . . وكيف تنسى صـداقتنا ولا تحاول ان تفضى الى بدخيلة نفسك ؟ . .

فأرسل الطبيب زفرة ثم رشق مدام ايفون بنظرة وجلة وانعقد لسانه وأوشك الدمع ان يطفر من عينيه

فعضت المرأة على شفتها السفلى وقربت مقعدها من مقعد الطبيب وانحنت عليه قليلا وقالت وهى شاخصة اليه :

— اعرف كل شىء يا ايفان !

فانتفض الرجل وتطلع اليها وحاول ان يتكلم ولـكنها قاطعته قائلة :

— انت فى أشد الحاجة الى المال !

فأطرق منسحقا وغمغم يقول :

— نعم . . .

فاستطردت مدام ايفون قائلة وهى لا تنفك تتفرس فيه :

— يجب ان تسدد غداً ذلك الدين الذى عقدته على المائدة الخضراء ، دين الميسر . . الدين المقدس . .

فهز ايفان رأسه ولم يجسر على رفع عينيه فأردفت مدام ايفون تقول :

— ويجب ان تنقذ ابنتك الوحيدة التي تعبدها والتي كادت تشرف على الاربعين . . يجب ان تزوجها بمن تحب . . ويجب ان تفي الديون التي عقدتها عائلة خطيبها والا عجز ذلك الخطيب عن الاقتران بها وخلفها فريسة العنوسة ونهب الفاقة والوحدة والشقاء . . . اليس كذلك ؟ . . اليس كذلك يا ايفان ؟ . .

فتقلصت شفتا الطبيب وانقبضت عضلات وجهه وارتجف وفاضت من عينيه الدموع . فأمسكت مدام ايفون بذراعه وربتت بيدها على كتفه . ولكنه تمالك بعد لحظة نفسه ورفع اليها بصره وقال في هدوء :

— من أين لك كل هذا ؟

فأجابت قائلة :

— كنت ألاحظك . . . تحريت عنك . . . دفعني خالص عطفي عليك الى الرغبة القوية في الاهتمام بك . أنت طبيب أسرتنا وانت الذي نصحت للمسيو فلاديمير بالاقتران بي . . لم أنس لك ذلك ، ولم أكد اشعر بحيرتك وقلقك حتى اهتممت بك ورغبت في انقاذك

وصمتت لحظة ثم قالت :

— ولقد استقدمت إلى هنا خطيب ابنتك .. نعم . كان بالأمس هنا وهو الذي صارحني بكل شيء والتمس مني ان أقدم لك يد المساعدة . .

فتنهد ايفان ثم أغمض عينيه قليلا كمن يحاول ان يلطف عنه وقع همه وقال :

— ان أسرة ذلك الشاب مثقلة بالديون وابنتي تعبده ، فاذا لم أسعفه بالمال رفض الزواج منها وعندئذ . .

فأتمت المرأة العبارة بأن قالت :

— .. قد تفكر ابنتك فى .. الانتحار !

فنهض الطبيب والعرق البارد يتصبب من جبينه وجعل يذرع البهو بخطى عصبية وهو يهز رأسه كمعتوه ويتمتم كلاما لا يفهم

وأمهلته مدام ايفون حتى هدأ ، ثم دعته ثانية للجلوس ، ثم قدمت له سيجاراً فاخراً ، ولما أشعله وطفق يرسل ذوائب دخانه فى الفضاء ، قطبت المرأة حاجبيها واستجمعت قواها وقالت بصوت غائر مرتعد النبرات :

— فى المسألة اذن مصير ابنتك ومصير سمعتك وكرامتك وشرفك ! . .

فصاح ايفان وقد أمسك بذراعى مدام ايفون :

— وأنت وحدك فى وسعك انقاذى ! . . أقرضينى ما أنا فى حاجة اليه ولك ان تستولى كل شهر على دخل عيادتى . سأشتغل ليل نهار .. لن أعود الى الميسر .. لن ..

فضحكت مدام ايفون ضحكة باردة جمدت الدم فى عروق الطبيب وقالت :

— ولكنك ستشتغل أكثر من عشرسنوات ثم لا تستطيع سداد هذا الدين . .

فوجم الطبيب وغمغم جاحظ العينين قائلاً :

— ولكنك صديقى وستقرضيني المبلغ ولا شك دون فوائد ؟ . .

فتجهم وجه المرأة فجأة وتبدلت سحنتها وقالت بصوت خشن جاف :

ـ أمجنون أنت ؟

فذهل الرجل ولم يفهم وأطال التحديق الى المرأة عله يستشف من ملامح وجهها حقيقة ما ترمى اليه من وراء هذا الحديث ، و لكن مدام ايفون ألقت برأسها إلى الخلف وقهقهت قهقهة عريضة داوية وقالت :

ــ انك بالطبع مجنون ! لن أقرضك المبلغ أبداً .. سأعطيك اياه .. بلا صك ولا ايصال ولا . .

فوثب الطبيب من مقعده شارد البصر وأكب على يدى مدام ايفون يحاول تقبيلهما غير انها تراجعت وأردفت بلهجة ملؤها التحقير والازدراء قائلة :

ــ ولكنك جبان يا عزيزى ايفان !

ففغر الرجل فاه كأبله . . وفى تلك اللحظة أطرقت المرأة واستطردت قائلة وهى تتلفت الى الأبواب المغلقة وصدرها يعلو ويهبط :

ــ سأعطيك المبلغ على شرط أن تطيعنى !

فصرخ : لك ذلك ! مرى !

فقالت وهى تترنح :

ــ ولكنك جبان !

فعيل صبر الطبيب ودنا منها وقال وقد اندلع من عينيه شرر العزم :

ــ لن احجم عن شىء فى سبيل انقاذ ابنتى وشرفى !

فنظرت اليه طويلا ثم ضمت أهدابها ثم اقتربت منه وأسرت فى أذنه قائلة وهى ترتعد :

ــ حتى عن الجريمة ؟

فجمد الرجل واندفق الدم الى وجهه وزاغت عيناه : فابتسمت مدام ايفون وتحولت عنه وقالت :

— أرأيت . . ارأيت انك جبان ؟ . . .

فاصطكت أسنانه وانخلع قلبه رعباً ، ولكنه كبح جماح أعصابه واستطاع أن يغمغم قائلا :

— ماذا تريدين ؟ ...

فاجابت على الفور بلهجة هادئة متزنة عازمة :

— أريد ان اتخلص من اميليا !

وقبل ان يتكلم ايفان عاجلته بقولها :

— انها مريضة وأنت الذى تعالجها وفى مقدورك أن تقضى عليها بنوع من ... من السم البطىء الذى لا يخلف فى الجسم أى أثر ...

فهلع فؤاد الطبيب وغشت الظلمة عينيه وتقهقر مذعوراً وقال وهو يلهث :

— أبداً ! لن افعل هذا أبداً !

فاربد وجه ايفون ومدت ذراعها وأشارت الى الباب وقالت :

— اذن فاخرج

فخطا ايفان خطوتين ثم تردد فاسرعت اليه وقد أومضت عيناها وأمسكت بكتفه وجعلت تهزه هزاً عنيفا وتقول :

— فكر فى نفسك . فى شرفك . فى سمعتك

فلوح بيده تلويحا متداركا وهو يزفر ، ثم قال :

— أبداً . . أبداً . .

فانحنت عليه وهتفت قائلة :

— اقتل ابنتك اذن . دعها . . دعها تنتحر ! ...

فتداعى جسم ايفان وخارت قواه وأحس كأن الأرض تميـد به فسقط على مقعد وطمر وجهه بين راحتيه وأجهش بالبكاء كالأطفال

وعندئذ تقدمت مدام ايفون ، وبرفق وعطف وشفقة مصطنعة أخاذة ساحرة لمست كتفه وقالت بصوت ناعم رقيق :

— اتفقنا ؟ ...

فلم يرفع اليها بصره بل اكتفى بأن هز رأسه بالايجاب ، فابتسمت المرأة واستدارت واتجهت نحو باب الصدر ففتحته ثم خرجت ثم اغلقته خلفها وتركت ايفان فى البهو بمفرده ينعم الفكر فى خير وسيلة للقضاء على حياة اميليا ...

ولم تنم إيفون تلك الليلة . . .

استحوذ عليها فرح غريب وملكتها نشوة الظفر . ولما تصورت نفسها وقد انتقمت من اميليا ومن فيدور واستولت على ثروة زوجها ، خامرها شعور عميق بالراحة والهدوء سرعان ما أغمض عينيها وأسلمها الى النوم عند مطلع الفجر

وكانت إيفون امرأة تقدس المال وتعبد الترف ، اقترنت فى مستهل شبابها بعامل فقير قضت معه ثلاث سنوات ثم مات دون أن يخلف لها شيئا ، فلم تفكر فى الزواج ثانية بل انطلقت تعيش حرة من كل قيد تنقلت من وسط الى وسط ومن رجل الى رجل ، واحترفت التمثيل ردحا من الزمن ، ونصبت شراكها لطائفة من الشباب السذج الموسرين ولكن أحداً منهم لم يولع بها ولم يذهب به غرامه الى حد التضحية فى سبيلها بماله وثروته

ولم تكن ايفون امرأة دميمة . بل كانت على النقيض حسناء فاتنة . ولكن فتنتها كان ينقصها سحر الأنوثة العذبة الرقيقة

والواقع أن ايفون كانت خشنة الصوت فظة الخلق غليظة الألفاظ والتعابير ، لا يكاد أن يعلق بها شاب حتى يفطن الى جمودها وغلظتها فينفر منها ويعرض عنها

وظلت السنوات الطوال تنشد الثروة على غير جدوى ، الى أن تعرفت ذات مساء فى حفلة عائلية كانت تمثل فيها الى المسيو فلاديمير مايسكى صاحب مصنع القبعات المشهور

وكان فلاديمير فى الخمسين من عمره ، توفيت زوجه منذ عشرة أعوام ، وخلفته يائسا حزينا فى صحبة ابنته اميليا

أدركت ايفون بغريزتها أن هذا الرجل الوحيد الشريد المتقد النفس عاطفة واحساسا فى حاجة الى امرأة

أدركت أن الحظ قد ابتسم لها فى النهاية وأن عليها أن تنتهز هذه الفرصة فتبدل من أخلاقها وتلطف من غلظتها كي تفوز بهذا الكهل السرى الذى لا ينشد فى الحياة أكثر من أن يشعر بلذة الهوى ومتعة الحب الأخير

وكان يتردد على المسرح الذى تمثل فيه ويرسل اليها طاقات الأزهار ويبعث اليها بمختلف الهدايا ، ولكنها كانت ماكرة خبيثة فصدت وتعالت عليه وأبت أن تمكنه منها ، وهكذا ألهبت عواطفه وأضرمت نار الحب فى صدره وألقت فى روع الرجل الساذج الطيب أنها امرأة شريفة فاضلة

وكان من عادة فلاديمير ألا يغشى المسرح الا مع طبيبه وصديقه الحميم ايفان . فتقربت المرأة الى الطبيب وامتدحته وأطرت نبوغه وجلبت اليه طائفة كبيرة من « الزبائن » ، فأكبرها وأعجب بسمو أخلاقها وانتهى به الأمر الى أن نصح لفلاديمير بالتزوج منها

وحدث أن مناورات ايفون كانت قد ضاعفت غرام فلاديمير قوة وزادته تأججا واشتعالا ، فأذعن لصوت عاطفته وامتثل لنصح طبيبه واقترن بايفون غير مكترث لمعارضة ابنته اميليا

ودخلت ايفون قصر فلاديمير دخول الفاتح ، وامتلكت ناصية الحياة التي كانت تطمح اليها ، وأغدق عليها قرينها من ماله وجاهه ما أشعرها بان القدر قد دان لها ، فانتشت زهواً وخيلاء واشتدت كبرياؤها وعظمت أنانيتها وتمثلت في نوع من الجشع المروع والرغبة العنيدة في السيطرة على البيت وحيازة عقل الزوج وقلبه ومجموع ثروته

ولم تكد ايفون تنشر جناحيها وتشرع في بسط سلطانها على البيت حتى اصطدمت باميليا ! . .

أبغضت الفتاة هذه المرأة الوقحة الدخيلة وأحست ماتريده بوالدها، فتجهمت لها واعترضت ارادتها وبذلت قصاراها لتحول بينها وبين التدخل في كل ما يتعلق بثروة الأسرة ، فجن جنون ايفون وامتلأ صدرها حقداً على اميليا ، وتوسلت بمحاسنها البدنية لاثارة الزوج على ابنته

وكانت تضطهد الفتاة ما استطاعت ، فتسخر من زيها ، وتهزأ بآرائها وأفكارها ، وتحقرها أمام الناس ، وتغتابها وتشي بها وتنسب اليها من الاقوال والافعال ما هي بريئة منه ، هذا والفتاة كلما حاولت الاستنجاد بأبيها اصطدمت بحبه العظيم لامرأته وثقته العمياء بها

وانقضى العام الاول بعد زواج ايفون في نزاع مطرد بينها وبين اميليا ، ولكن الزوجة كانت أقوى من الفتاة ، كانت أقوى بسحر الجسد واغراء الانوثة وسلطان الحب على نفس رجل كهل يأبى الا ان

يفوز من الحياة بأوفر قسط قبل أن تعاجله الشيخوخة ويداهمه الموت

ولما أبصرت اميليا والدها يضعف ويتراخى ويستسلم لتأثيرامرأته ، وأحست العجز المطلق عن كبح جماح زوجة أبيها وإلزامها حدها ، ولما أيقنت ان هناك سحرا غريبا لا قبل لها بمقاومته ، انطوت على نفسها . ولاذت بالعزلة وتركت المرأة الدخيلة تعبث بثروة الأسرة كيف شاءت

وعندئذ لعبت نشوة النصر بعقل ايفون ، واحتدمت كبرياؤها ، وصفا لها الجو فبدأت تفكر فى نفسها هى وفى ملذاتها هى وفى حقها الشخصي فى الحب والحياة

برمت بذلك الكهل الأبله الغر الدميم ، ووثقت صلاتها القديمة بعشيقها القديم فيدور بعد أن كانت قد قطعت كل علاقة لها به يوم تزوجت كى لا تثير شبهات فلاديمير وكى تفوز بثقته وتمهد لاستئثارها به

وعادت الى فيدور ، وارتمت بجمعها فى تيار حبه . وكان شابا عاطلا يعيش عالة على النساء ، يتصيدهن بجماله وسحر حديثه واناقة مظهره ثم يهددهن بالفضيحة أو الضرب أو القتل ان هن حاولن الافلات منه أو قبض أيديهن عنه . وكانت ايفون تعجب بجماله وقوة عضلاته ووثاقة تركيبه ولؤم طبعه وجرأته النادرة فى تحدى كل عرف وفضيلة

ولم تكن تحبه ذلك الحب المعنوى الذى يجمع بين قلب وقلب فى ظل العاطفة والروح . بل كانت تحبه حبا حسيا وضيعا ، حب انثى لشاب مكتمل القوى ، وكان فيدور يعرف منها هذا ولا يحفل به مكتفيا بالحصول منها على كل ما هو فى حاجة اليه من المال

واستشعرت اميليا بفطرتها المتوقدة أن سلوك زوجة أبيها قد

تغير . فراقبتها ، وبثت حولها العيون والارصاد ، وعرضت بها من طرف خفى ، وجاهدت لتقف على سرها وتثأر منها ، ولكن ايفون كانت مثال الحرص والتحفظ فى علاقتها ، فلم تستطع اميليا أن تعثر على اى برهان ينم عن غدرها وخيانتها ، فكرت على أعقابها حانقة يائسة مهزومة

غير ان ايفون لم تغتفر للفتاة فضولها الخطر

زاد حقدها عليها وكرهها لها واستنكارها لمسلكها ، واستهولت أن تجرؤ تلك الفتاة الضعيفة الذليلة على مناصبتها العـداء ، فعيل صبرها وشرعت تفكر فى خير الطرق للتخلص منها ...

ماذا تفعل ؟ وكيف تطرد اميليا من البيت ؟ وكيف تتخلص منها بحيث تبقيها فى نفس الوقت خاضعة لسلطانها وتبقى فى يدها نصيب الفتاة من ثروة أبيها ؟ ...

فكرت ايفون طويلا ، وأخيراً ، وبعد تقليب الامر على مختلف وجوهه ، قر قرارها على المضى فى السبيل الذى اختطه لها دهاؤها

أرادت ان تزوج اميليا من عشيقها فيدور !

هذا الزواج وحده هو الذى يحقق أغراضها ويبقى الفتاة متخبطة أبداً فى الشرك الذى نصبته لها ...

وعند ما تأزف الساعة ويموت فلاديمير لا يستولى غريب على نصيب اميليا من ثروة أبيها بل تظل الثروة بأجمعها فى قبضة ايفون وقبضة عشيقها !

وصارحت ايفون خليلها بما استقر عليه رأيها ، فأعجبته الفكرة وراق له أن يمثل بفضل زواجه باميليا نفس الدور الذى مثلته ايفون بزواجها من فلاديمير ، فيوطد صرح حياته ويأمن غدر المستقبل ويظل على اتصال دائم بعشيقته

ولـكن فيدوركان عاطلا فسعت المرأة حتى مكنته من الفوز بمنصب متوسط الأجر فى مصنع زوجها

وانطلقت تعاونه وتؤيده وتزكيه وتبالغ فى وصف اخلاصـه وكفايته حتى رقاه فلاديمير وضمه الى هيئه ادارة المصنع

وحينئذ قربته ايفون الى دائرة الاسرة واستقبلته فى حفلاتها وعرفته الى اميليا وجعلت تشيد به وتتحدث عن المستقبل الرائع الذى ينتظره . وكان فيدور جميلا أنيقا حلو الحديث خبيراً بالنساء ،فاستهوى لب اميليا التى افتتنت بأدبه الجم وحسنه الخلاب ورشاقة حركاته ودماثة خلقه وتفوقه العجيب فى مختلف فنون الرقص ، فمالت اليه واشتركت مع ايفون فى تزكيته عند فلاديمير

وكان ما أرادت الزوجة ، واقترن فيدور باميليا فى مساء يوم من أيام الربيع صافى السماء رقيق الهواء ، صدحت فيه موسيقى الجيش بانغام تجاوبت اصداؤها فى نفس ايفون واستقرت فيها ولم تبرحها فيما بعد ابداً ! .

* * *

واستأجر فيدور داراً جميلة حمل اليها امرأته ، وابتهجت ايفون واستراحت وخلالها الجو . ولـكن من ذا الذى يستطيع التنبؤ بالمستقبل ومن ذا الذى فى مقدوره أن يستبين من خلال طيات الزمن ألاعيب القضاء ونزوات القدر ؟ .

الانسان يقدر والأقدار تضحك ، والانسان يبنى والأقدار تهدم ، والانسان يضع الحجر فوق الحجر ويقيم الطبقة فوق الطبقة وهو لا يدرى أن القصر من ورق وأن القاعدة من رمال !

والحق أن ايفون فـكرت فى كل شىء ماخلا هذا !

حسبت حساب كل شيء ماخلا هذا ! .

أممكن هذا ؟ . . كلا . والف مرة كلا ! . . ومع دلك فالحقيقة ساطعة كالشمس ، حادة لامعة كالنصل تخترق صدر كل من تحدثه نفسه بمحاولة الدنو منها ! .

نعم . وقع الحدث غير المنتظر ، وروعت ايفون وبهتت ، وعراها شبه خبال عند ما أدركت أن فيدور .. فيدور عشيقها .. فيدور الذى أوجدته من العدم . . قد أفلت منهـا وأعرض عنها وبدأ يحب زوجته اميليا !

أحبها لأنه صادف فيها ما لم يصادفه فى أية امرأة من قبل !

أحبها لطهرها وبراءتها وعفتها ونضرة الفضيلة النابعة من قلبها والمنسكبة عليها !

أحبها لأنها كانت على نقيض ايفون وكل امرأة من الغـانيات الخليعات المتهتكات أولئك اللواتى عبثن بشبابه وكدن يستنفدن منه خلاصة قوى القلب والروح !

شاء القدر أن يحب فيدور زوجته ويخلص لها ويصد عن عشيقته كأن لم تـكن له بها أية صلة ، فثارت ثائرة ايفون وبرح بها الـكمد والحنق وكبر عليها أن تسلبها اميليـا الرجل الذى كان متعة لبدنها وحواسها ، فاشتد تحرقها على فيدور واشـتد خوفها على مصير ثروة زوجها واشتد بغضها لاميليا ، فغامرت بكل شيء لاسترداد عشيقها والاحتفاظ بالمال ، والثأر من غريمتها ، ولم تتردد فى انتهاز الفرصة السانحة والتغرير بالطبيب المسكين ودفعه لارتكاب الجريمة !

* * *

وكانت ايفون جالسـة فى احدى حجرات القصر ذات صباح وفد

اتشحت بثوب اسود ضاعف جمالها اكتمالا ونضارة . وانها لتحدق الى صورة اميليا الموضوعة فوق المعزف فى اطار من الصدف ، اذا بطارق يدق على الباب دقا خفيفا ، فأجفلت وصاحت قائلة :

— من ؟ .. ادخل . ! .

ففتح الباب فى رفق ودخل منه الطبيب ايفان مكفهر السحنة منفوش الشعر غائر التقاطيع . فهزت ايفون كتفيها غير مكترثة وقالت :

— هذا أنت ؟ !

فأوصد الطبيب الباب وتقدم اليهـا وقال والشرر يتطاير من عينيه :

— لم يعد في وسعى الانتظار . يجب أن تفى بوعدك . يجب أن تدفعى القسط الثانى من المبلغ !

فرمقته ايفون بنظرة مشفقة ساخرة وقالت :

— لقد أنقذتك من دين الميسر ، وأعتقد أن فى هذا الكفاية

فنفد صبر الطبيب وصرخ قائلا :

— ولكنى أريد تزويج ابنتى ، ولا بد لى من المال . ولقد وعدتنى فأخلفت وعدك !

فتضاحكت ايفون وقالت فى برود :

— انتظر أيضا ... بعد شهر ... لا ... بعد أسبوع

فدنا منها وانحنى عليها وقال مغمغما :

— بعد أسبوع يكون قد فات الوقت . سيحجز على مرتب خطيب ابنتى ، ولا بد من فصله من وظيفته بسبب هذا الحجز . . . تلك هى العادة المتبعة فى المصرف الذى يعمل فيه . . . فأنقذيه وأنقذى ابنتى واذكرى أنى لم أدخر وسعا فى سبيل تحقيق رغبتك !

فنهضت ايفون مقطبة الحاجبين وقالت فى خشونة :

-- لا مال عندي الآن !

— ولكن الكارثة ستنقض علينا غداً !

فقالت هازة كتفيها :

— وماذا يهمنى ؟ !

فارتجف ايفان وصاح قائلا :

- ولأى شيء ارتكبت أنا جريمة القتل إذن ؟

فذعرت المرأة وتلفتت حولها ذاهلة ولكنها سرعان ما تمالكت نفسها وقالت فى هدوء :

— ماتت اميليا ، وأنت الذى قتلتها ، فافعل ما بدا لك . ستكون أنت الضحية اذا تكلمت . . . أما أنا فلن أدفع ... لن أدفع شيئا .. هذا هو القول الفصل !

فغشى الدم عيني الطبيب واختلجت أعضاؤه كأنما قد ساورتها حمى وقال وهو يلهث :

— تغررين بى بعد أن سخرتني لارادتك وانتفعت منى ؟ . . يعز عليك الآن دفع بقية المبلغ ؟ . . تؤثرين ولا شك ادخاره أو انفاقه على ملاذك ؟ ولكن . . .

واقترب منها أيضا ولوح بذراعه وأردف قائلا :

— ولكن احذرى !

وحدقت اليه تحديقا هائلا ثم افترت شفتاها عن ابتسامة محتقرة ثم قالت :

— لا أخشاك !

فوجم ولم يدر ما يقول فاستطردت هى قائلة :

— أنت جبان ، ولولاى ما قتلت ، ولن تستطيع مهما حاولت أن تصيبنى بشىء !

فضم الطبيب أسنانه وأطرق برأسه لحظة ثم رفع عينيه اليها وتأملها طويلا ثم استدار ، واتجه نحو الباب ، وقبل أن يخرج التفت الى ايفون ، وانحنى أمامها باحترام ، ثم نصب قامته وأرسل نفسا مستطيلا ودفع الباب واختفى

* * *

وكان قد انقضى على وفاة اميليا ثلاثة أيام ، وكان الصمت الثقيل يخيم على البيت ولا سيما مخدع فلاديمير حيث كان الكهل ممدداً على فراشه لا يستطيع الحراك من جراء نوبة شلل عنيفة أصيب بها عقب موت ابنته

وكان فيدور جالسا على مقعد بجواره مربد الوجه زائغ العينين مضطربا قلقا ، يقلب بين يديه مجموعة التذاكر الطبية التى كتبها الطبيب ايفان لزوجته ، ويتفحصها وهو يهز رأسه تارة ويطرق أخرى ويسترسل فى تفكير عميق

وكان ايفان يعلم بوجود فيدور فى مخدع فلاديمير فى هذه الساعة فلم يكد يختفى عن بصر المرأة حتى اخترق البهو الكبير ومر بمخدع اميليا ثم هبط الحديقة ثم ارتقى السلم المؤدى منها الى مخدع فلاديمير .

وزايلت الطبيب وهو يتحرك ويمشى صفة الاتشاد والتفكير واستحوذت عليه فكرة ثابتة حجبت فى نظره كل شىء وساقته كالآلة وجردته من كل احساس بالحاضر والمستقبل

وتلفت فيدور مندهشا فأبصر نفسه أمام ايفان وجها لوجه ، فضم أصابعه على التذاكر الطبية ونهض لفوره متجهما ولم يستطع بالرغم منه أن يحيى الطبيب

وعندئذ تقدم ايفان بخطى ثابتة وأومأ الى التذاكر وقال بصوت مرتعش !

— فيدور ، انك تشك فى !

فصمت فيدور وهو يعبث بالاوراق ، ولما خطا نحو الطبيب وهم بالكلام ، قاطعه ايفان بصوت حاسم قاطع قائلا :

— وانت على حق ! . فانا .. انا قتلت اميليا !

فصعق الشاب وجمد واشرأب فلاديمير بعنقه وجحظت عيناه ، وتوثقت عقدة لسانه ، فجعل يختلج ويرتعد ويلوح بذراعه المشلولة ويجيل فى ايفان بصره المخبول الشارد

وعندئذ أفاق فيدور من غشيته وانقض على الطبيب وأمسك بكتفيه وطفق يهزهما ويردد قوله :

— أنت ؟ . . أنت ؟ .

فأجاب الطبيب مدفوعا بقوة لا تقاوم :

— نعم ، قتلتها ولـكن بايعاز من ايفون !

ففغر فلاديمير فاه وحاول ان يصرخ ولـكن الصرخة اختنقت فى صدره ، فأخذ يتلوى ويزفر ويئن ، أما فيدور فقد أدرك فى لحظة كل شىء ، تحقق ظنه وأيقن أن هذا هو انتقام عشيقته القديمة التى أعرض عنها ، فهاله الجرم وأيقظ فيه كوامن حبه لاميليا وبغضه لايفون ، فصاح قائلا :

— هى التى أوعزت بالقتل ؟ . . هى ؟ . .

وعندئذ فتح باب المخدع فجأة وبرزت منه ايفون تائهة العينين محلولة الشعر وقالت :

— نعم . أنا التى أوعزت !

وتقدمت الى زوجها فلاديمير الذى كان قد انكمش فى فراشه وتجمد كميت ، وأشارت الى الشاب وأردفت قائلة :

ـــ أوعزت بقتل اميليا لأن فيدور أحبها ولأنه كان عشيقى !

فارتعد فيدور وأغمض فلاديمير عينيه وعض على شفته ، ولكن ايفون استطردت قائلة :

ـــ لا فائدة الآن من الانكار ! الطبيب الجبان تشجع بغتة وغامر بكل شيء واعترف ، ولقد كان فى وسعه لو أنكرت أن يجبهنى بالمال الذى أعطيته له منذ أسبوع بصفة قرض أمامك أنت يا فلاديمير . . ! ما كنت أظن ان ايفان يغامر بسمعته ومستقبله ومستقبل ابنته فى سبيل الانتقام منى . ولكنه انتقم ، انتقم لأنى قبضت يدى عنه وأبيت اعطاءه بقية المبلغ الذى اتفقنا عليه ليزوج به ابنته . ابيت إعطاءه إياه ولم أكد أحصل عليه منك أمس يا فلاديمير حتى أسرعت فابتعت به معطفا من الفراء الرائع كان قد أعجبنى ! . .

وابتسمت ابتسامة متشنجة بلهاء وغمغمت تقول :

ـــ هذا المعطف أفسد كل شيء ! . .

وصمتت وهى تلهث ، وسرح فيدور ببصره فى انحاء الغرفة ولم يدر ماذا يجب ان يفعل ، وظل ايفان ثابتا فى مكانه كصنم ، وفى تلك اللحظة تحرك فلاديمير واستوى على فراشه ورمق زوجته بنظره ، ثم تحسس وسادته ودس يده تحتها وانتزع المسدس برفق ، وقدمه الى ايفون وهو ما يزال يحدق اليها . فانتفضت المرأة وتراجعت وحينئذ تمكن فلاديمير من النطق بهذه الكلمات :

ـــ سيسلم ايفان الساعة نفسه للبوليس ، سيعترف بكل شيء . والموت هنا خير لك من الفضيحة والسجن هناك !

فمدت المرأة ذراعها المرتعشة وتناولت المسدس ، وفى تجلد وسكون وامتثال ، خرجت من المخدع دون ان تفوه بكلمة . واذ ذاك قال الطبيب وهو يفتح الباب المؤدى الى الحديقة :

— هذا هو القدر ، وسأكفر عن ذنبي أنا أيضا ! . .

وفى تلك اللحظة غربت الشمس وغاب قرصها الاحمر وراء الافق وخيمت الظلمة على المخدع فاستأنس بها فيدور واطمأن لانصراف ايفان وأراد ان يعرب عن حقيقة نفسه ، وعن حبه العظيم لاميليا ، وعن مبلغ الندم الذى يشعر به لخيانة الرجل الذى أحسن اليه ، وعن مبلغ حاجته الى الصفح والغفران ، فتقدم نحو فلاديمير بخطى وئيـدة وجثا عند قدميه ، ولـكن المريض اختلج وانكمش ، فجاشت عواطف فيدور وانهمرت الدموع من عينيه ، فتنهد فلاديمير وبالرغم منه مد ذراعه وجعل يمسح باصابعه رأس فيدور وهو يبكى

وعندئذ دوى الطلق النارى فصحا الرجلان وادركا ان حياة ايفون قد انتهت !

الثمرة المنشودة

للكاتب الانجليزى

موريس بكوك

أى هم عصف بدوروثى الآن وجثم على صدرها وكواها بناره وجعل من ذهنها مسرحا لأبشع الخيالات ؟ . .

هى نفسها لا تريد أن تصارح نفسها بحقيقة ما يدور فى خلدها . لا تريد ان تكشف النقاب عن تلك الافكار الغريبة التى تسرى فى عقلها الباطن كالأشباح

ان الظلمات تغمر كيانها ، وليس فى وسعها ان تخترقها وتصب عليها من عقلها المتأمل الفاحص نورا يبددها وينفذ الى أعماقها !

لا ، ليس فى مقدورها ان تواجه تلك الصورة الشائنة النكراء . ليس فى مقدورها ان تتهم أحب الناس اليها . ليس فى مقدورها ان تقطع وتجزم وتسلم بأن الخواطر التى تتراكض فى عرض دهنها ، هى مجموعة حقائق اختطفها بصرها منذ أيام واستقرت آخر الأمر فى محيط نفسها . .

لمحت عينها الذكية بعض الابتسامات وبعض الحركات وبعض النظرات والايماءات ، ولكن هل يدل ذلك كله على شىء ، وهل فى استطاعتها ان تتخذ منه برهانا ساطعا على ان فى الأمر سراً ، وعلى أن فى تلك الصداقة خيانة وغدرا ؟ . .

كلا . . . ان ابتسامة الصداقة تشبه فى الغالب ابتسامة الحب ، وحركات الدل والرشاقة تشبه فى الغالب حركات الخلاعة والفتنة . ونظرات العطف وايماءات المودة تشبه فى الغالب نظرات العشق وايماءات الهوى . .

لا . . . لا . . . الحياة غريبة المظهر ، والصور فيها تضطرب وتختلط ، وما نعتقده شراً قد يكون خيراً ، وخيال العقل البشرى هو الذى يجسم الاشياء ويباعد بينها وبين الواقع ، ويمسخها ويشوهها ، ويودع فيها من الصور الشاذة ما لا يمت الى جوهرها النقى بأية صلة

أجل ، ليس فى الأمر خيانة ولا غدر ولا جريمة ، هى صداقة طاهرة بريئة ألفت بين قلبين مخلصين صادقين . .

ومع ذلك فدوروثى تتألم . .

لا تستطيع طرد الشبح المروع الذى يطوف بها ويقض مضجعها ويحرمها لذة الراحة فى هذه الساعة الرهيبة التى لا تنشد فيها أكثر من السكون والراحة

انها تتألم ، وتتلوى ، ويرزح رأسها الصغير تحت وطأة أفكارها ويكافح الصداع والدوار على غير جدوى

كل قواها يجب أن تتجه الآن صوب الحياة التى سوف تنبثق منها ، ولكنها تتوزع وتتبدد وتضيع فى تصورات وخيالات تضنيها ، وتزعزع سلطانها على نفسها ، وتنهك بدنها المشوه المنتفخ العليل !

يا لبدنها مما حل به ، ومما أرادت الحياة القاسية ان يكون

يا لبدنها من هـذا التشويه الذى أفقده نضارته ، ونكر معالمه ، وامتص عصارته ، وأحاله هيكلا مروعا دميا ينفر منها الأنظار ويبعث الرعب والاشمئزاز فى القلوب

ألا يكون هذا المظهر المشوه ، هو الذى صرف بصر « جيمس » عنها ، وأطلقه من ربقة حبها ، ودفع به الى امرأة أخرى ، وهوى آخر ، ولذة مستملحة جديدة تتمثل فى جسم غض ، وشكل منسجم ، ووجه ساحر منبسط جميل ؟ . .

لم لا ؟ . الرجال يسعون وراء الصحة والخفة والجمال . لا صبر لهم على المرأة ، لاصبر لهم على دمامتها العارضة وان كانوا هم الذين أوجدوها وتهالكوا عليها

ولو أن دوروثى لم تصبح الآن شوهاء دميمة ، لكان قرينها جيمس قد خولط فى عقله وأصابه مس من جنون !

هو الذى أراد ذلك ، هو الذى سعى اليه بكل قواه ، هو الذى رغب فيه بملء نفسه ، وملء عواطفه ، وملء رجولته واطماعه

عاش مع دوروثى عشر سنوات ، مشرئب القلب والاحساس نحو الابوة ..

لم يعقب طول هذه المدة خلفا ، لم تقر عيناه برؤية مخلوق انحدر من صلبه ، لم يمتع بمشاهدة طفل يصيح ويضج ويمرح فى ارجاء البيت ، لم يرتو ظمأ غريزته ولم تهبط عليه نعمة الابوة التى طالما التمسها من الله تارة ومن الاطباء تارة أخرى . وكان جيمس على ثروة واسعة وضياع وأملاك يقصر الفكر عن حدها . وكان وحيداً فى هذه الدنيا توفى والداه ومات اشقاؤه جميعا وتاقت نفسه الى مخلوق ذكر يرث اسمه وماله ، ويخلد فى العالم ذكره ، ويشعره بأن حياته لم تكن هباء ، وان زواجه لم يكن صفقة خاسرة عقدت لمصلحة الفطرة الشهوية الوضيعة النكراء

ولشد ما تعذب جيمس طول تلك العشر سنوات

كان لا يكاد يبصر طفلا حتى ينقبض فؤاده ويحس أن صدره يتمزق ، ولا يكاد يسمع امرأته تتحدث عن الاطفال حتى يختلج ويبكى ولا يكاد يلمح أبناء الجيران حتى يسرع اليهم ويحملهم بين ذراعيه ويوسعهم ضما وتقبيلا حتى يرتوى

وكان لفرط تعلقه بالاطفال يجمع أبدع صور لهم من الصحف والمجلات ويزين بها مخدعه ومخدع امرأته ويظل اللحظات الطويلة واقفا يتأمل الصور بعين ساهمة حزينة ترتعش أهدابها وتجالد كى لا تطفر منها الدموع

وكانت دوروتى تتعذب لعذابه ، وتشعر بضرب من المهانة والذلة يقينا منها أن الذنب ذنبها وأن الطبيعة خانتها وانها امرأة ملعونة عقيم على ان* زوجها لم يفكر لحظة في طلاقها ، ولم يفاتحها فى شيء من هذا بل لم تخطر على باله هذه الفكرة أبداً . كان أكرم نفسا وأنبل احساسا وأسمى عقلا ووجدانا ، من أن يحمل امرأته وزر الطبيعة ، فينفصل عنها دون ماذنب ارتكبته بمحض ارادتها . ولكن هذا الخلق الكريم ضاعف احساس دوروتى بذلها وعارها ، وزاد فى ألمها وعذابها ، وأشاع فيها سورة اليأس والحسرة فكانت تعيش منطوية على نفسها ، تكظم حنقها تخفيفا عن زوجها وتلطيفا لعذابه ومعاونة له على احتمال حكم القدر

وفى غضون ذلك كانت « راشيل » زوجة ابن عمها تكثر من زيارة البيت وتحمل الى دارها العابسة المتجهمة ، شبابها الناضر ، وابتسامتها المرحة ، وصوتها الطلق الجهير ، وحلاوة حديثها وخفة روحها ، فكان جيمس يأتنس بها ويطيل التحدث اليها ويعجب بنصوعها واشراقها ويهدأ ويقر وتنبسط تقاطيع وجهه ويضحك إذ يراها

ولم تتبرم دوروثى براشيل يوما . بل على النقيض ، فتحت لها أبواب بيتها ، ووثقت بأخلاقها وسلوكها ، وارتاحت الى صداقتها لزوجها ، بل كانت سعيدة بهذه الصداقة العائلية البريئة وبما تحمل الى قلب جيمس من مرح وطلاقة وانشراح ، فشجعت عليها ووثقت

روابطها واتخذت هى نفسها من راشيل صديقة حميمة جعلتها موضع سرها

غير ان المرأة حيال المرأة لا تستطيع الا أن تكون متيقظة العقل متنبهة الذهن مفتحة العينين ...

وكذلك كانت دوروثى ، نخيل اليها على مر الأيام ان صداقة راشيل لزوجها تتطور ، وأن لونها قد حال وتبدل ، وأن فى نظراتهما وحركاتهما وايماءاتهما ما يثير الشكوك ويبعث على الدهشة

وكانت لفرط ابقاء جيمس عليها ، ولشدة ما احتملت برفقته من عذاب ، ولعظم يقينها بأن القدر لا بد من أن ينصفها يوما ويحرك فى احشائها بغتة ذلك الجنين المنشود ، كانت تتعلق بزوجها جهد استطاعتها وتتشبث به وتحبه أعمق الحب وتود أن تجاهد لتحتفظ به حتى تأزف الساعة وتقدم اليه الطفل الذى لم تشك لحظة فى أن الله سوف يشفق عليها ويرسله اليها يوما ...

وها هوذا الله العالم بشقائها يلبى سؤالها فى النهاية وينفخ الروح فيها ويوقظ نفسها على الفرح ويملأ صدر زوجها بنشوة الابوة الجارفة العاتية !

ولكن فرحها العظيم قد عكر صفاءه انتفاخ تقاطيعها وتكور بطنها ودمامة وجهها ، وهذا المظهر الفظيع الذى لا تكاد تقع عليه عين زوجها حتى تجفل وترتد ثم تستقر على راشيل وعلى حسنها الناضر الفتان ! . .

أو لن تفارقها هذه المرأة ؟ انها هنا ! . فى بيتها ! . فى صحبة زوجها ، جاءت لتعنى بها وتسهر عليها أيام وضعها وتدلل على خالص عطفها وولائها ...

ها هى ذى تتنقل في أنحاء الدار ، تأمر وتنهى ، وتعمل وتخدم ، وبيدها زجاجات الدواء ، والابتسامة الهادئة لا تفارق محياها

وها هو ذا جيمس وقد استخفه الطرب ولعبت برأسه نشوة الفوز يغدو ويروح تارة ، ويلب ويرقص أخرى ، ثم يقهقه قهقهة طويلة وهو لا يصدق أنه قد أصبح والداً بعد عشر سنوات قضاها فى الحيرة والقلق والاضطراب والتحرق على ولد !

وها هى ذى دوروثى مستلقية على فراشها تحدق اليهما ولا تستطيع ان تتصور انهما يخدعانها وان ابتسامة راشيل قد تكون ابتسامة نفاق وان طرب جيمس قد يكون طرب والد سعيد بالأبوة وسعيد بغرام متبادل عميق

وكانت الليلة ليلة شتاء ، والبرد قارس ، والريح تزأر فى الخارج ، وتتقدم ، وتلطم النوافذ ، وتحاول اقتحام البيت ، فأحست دوروثى برودة تسرى فى أعضائها وشبه قشعريرة تتولاها ، فجذبت اليها لحافها وتدثرت به وعينها المتنبهة نصف المغمضة لا تنفك تحدق الى زوجها وتلاحق راشيل

وعندئذ سمع فى الخارج دوى مروع ، وكأن قطعا هائلة من الحديد تتدحرج ، ثم عوت الرياح وانفطرت السماء ، وانهال المطر غزيراً صاخبا ، فذعرت دوروثى وهلع قلبها وتملكها الرعب وتضامت وانكمشت وحجبت نفسها باللحاف وغاب جسمها تحته وحف بهـا وبالحجرة وبالعالم صمت لم يعكره غير وقع المطر المتساقط على النوافذ وحواجز الشرفات

واستشعرت دوروثى كأن خطى تتباعد وتنسل في رفق ، وخيل اليها أن زوجها وراشيل قد اعتقدا أنها نامت فانصرفا عنها فى سكون ،

فابتسمت لهذا الخاطر وارتاحت له واغمضت عينيها ، واحتواها الصمت الزاخر بهمهمة الريح وجلجلة الرعد ووقع المطر

وانقضت فترة ولم تتبدل روح هذا الصمت ، وانقضت أخرى والصمت هو هو ، لم يخالطه فى البيت صوت ولم يشوش عليه من الدار أو الحجرة اى همس أو حفيف

فاستغربت دوروثى هذا السكون العاصف المزعج المطرد المتشابه

واهتاجت أعصابها ، فتضجرت ، وتأففت ، وتقلبت فى فراشها ، ثم مدت يدها بالرغم منها ، ورفعت الغطاء عن وجهها ، ورفرفت بعينيها وأجالت بصرها فى فضاء الغرفة

همت بأن تفتح شفتيها وتنادى زوجها ، ولكن عينها جحظت فجأة واختنقت الكلمة فى صدرها

لمحت جيمس هناك ، فى أقصى الحجرة ، بجوار الباب الأيمن ، منزوياً خلف مصراعه ، يطوق بذراعه خصر راشيل ، ويدنيها منه ، ويكاد يخفى بدنها ، وهو يقبلها قبلة نهمة خرساء

تصبب العرق من جبهة دوروثى وكف قلبها عن الخفقان، وطوحت الصدمة بها ، فأذهلتها وأعمت بصرها وأفقدتها الرشد ، فتحركت ، واستوت على فراشها ، ثم تمالكت أعصابها جهدها واستجمعت قواها وسددت بصرها الى الباب ، فلم تبصر شيئا ، لم تر للشبحين أى أثر ، فجن جنونها ، واستولى عليها حنق هائل ، ونسيت نفسها والحالة التى هى فيها وأوامر الطبيب ، وألقت عنها غطاءها ، وفى سرعة وعزم وإرادة جبارة لاتقاوم ، غادرت الفراش ، وانطلقت تعدو نحو الباب ، مندلعة العينين ، مشعثة الشعر ، ممتقعة الوجه ، تتعثر بأطراف ثوبها فتستند الى الحائط ، وتتعثر بأثاث الغرفة فتركله ، حتى وصلت الى

الباب ، ولما لم تجد أحداً وأبصرت نفسها تجاه الدهليز الطويل المظلم ، تحسست الجدار وضغطت على الزر ، فاستضاء المكان ، وسرعان ما وقع بصرها على منديل سقط على الأرض سهواً بجوار الباب ، فالتقطته وأنعمت النظر فيه وإذا به منديل راشيل ، فتعاقبت أنفاسها ، وأوشك الدوار يهوى بها ، ولكنها استطردت السير واجتازت الدهليز وهى تلهث ، وعند مابلغت مخدع زوجها ورأت بابه موصداً أمامها ، رفعت قبضتيها وانهالت ضربا على الباب فانفتح وأطل منه جيمس مستنكراً مستهولا مذعوراً ، فلما أبصرته وحدقت اليه وشاهدت ارتباكه واضطرابه وتخبطه ، تراجعت وحجبت وجهها بيدها ثم صرخت صرخة هائلة ودفعت اليه بالمنديل وسقطت على عتبة الباب مغشيا عليها !

وفى صباح اليوم التالي اجتمع جيمس وراشيل وبعض الجارات حول دوروثى ، وكان قد جاءها المخاض قبل الأوان ، فوضعت أمام عينى زوجها الطفل الذكر الذى انتظره عشرة أعوام ، الطفل الذى لم يكد يلمحه جيمس ، مغلق الفم ، هامد العينين ، أشبه بقطعة لحم باهتة منفرة ، حتى اخترق الألم صدره كطعنة سكين ، فأشاح ببصره ، وفر من الحجرة لساعته ، وقد علم علم اليقين أنه هو الذى قتله !

طوبى للبسطاء

للكاتب الفرنسى

أناتول فرانس

في عهد ملك من ملوك الفرنسيس، كان يعيش في فرنسا بهلوان فقير يدعى « برنابا »

ولد هذا البهلوان في مدينة « كومبيانى » ، وكان من عادته التنقل في المدن والقيام أمام الجماهير بحركات بهلوانية تنم عن قدرة ومهارة وفهم

ففى أيام السوق ، كان برنابا يبسط في الميدان العام سجادة قديمة بالية – وبعد أن يبذل قصاراه في جذب الصبيان وجماعات السذج من السابلة اليه بألفاظ وعبارات فكهة أخذها عن بهلوان عريق فى مهنته وأبى أن يبدل منها شيئا ـ كان يقوم بألعابه فيتخذ أوضاعا غريبة مختلفة ، ويرفع فوق أنفه طبقا كبيراً بحيث يظل الطبق في أثناء اللعب ثابتا لا يتحرك . وكان الجمهور ينظر اليه عندئذ نظرة عارضة غير مكترثة . ولكنه عند ما كان يستند الى يديه ويطرق برأسه ثم يقذف فى الهواء ست كرات من المعدن ثم يتلقفها بقدميه وهى تلمع تحت أشعة الشمس ، أو عند ما كان يلقى برأسه الى الوراء حتى يلمس بقفاه كعبيه ويستحيل جسمه الى دائرة كاملة وتأخـذ يداه بتحريك اثنتى عشرة سكينا واللعب بها وقذفها فى الهواء ، فى تلك اللحظات كانت تتصاعد من الجمهور غمغمة اعجاب ، ثم تتساقط قطع النقود على السجادة البالية كالمطر

ومع ذلك فقد كان برنابا كجميع الفنانين الذين يعيشون من فنهم فقيراً لا يستطيع الحياة الا بشق النفس

كان يربح خبزه بعرق جبينه ، ويحمل من الشقاء الانسانى المنحدر من خطيئة آدم نصيبا أكبر مما يستطيع أن يحمل عاتقه

ولم يكن فى وسعه أن يعمل كما يريد . ولم يكن فى مقدوره أن يظهر نبوغه وتفوقه إلا فى الصيف تحت وهج الشمس وضوء النهار ، اسوة بالأشجار التى لا تعطى ثمارها وأزهارها إلا فى الصيف أيضا . أما فى الشتاء فكان يشبه شجرة جردت من أوراقها وشارفت الموت. وكانت الأرض المغطاة بالجليد تعوقه عن العمل ، فكان يتألم من البرد والجوع ولكنه لسماحة نفسه وبساطة قلبه كان يحتمل آلامه فى صبر جميل

ولم يفكر برنابا ابداً فى الثروة وكيف تنشأ ، ولافى المال ومن أين يأتى ، وفى الفارق العظيم بين الغني والفقير ، وبين حظ انسان ومصير آخر . كان يعتقد أن هذا العالم اذا كان فاسداً فلا بد أن يكون العالم الآخر صالحا ، وهذا الأمل كان ينشطه ويقويه . والحق أن برنابا لم يفكر أيضا فى الاقتداء بطلاب المال أولئك الذين باعوا أنفسهم للشيطان . ولم ينكر وجود الله ابداً ، بل كان رجلا صافى النية خالص السريرة شريف المسلك ، لا يشتهى امرأة جاره على الرغم من أنه لم يتزوج . وكان بطبيعته ينفر من النساء لاعتقاده ان المرأة عدوة الرجال الأقوياء كما يبدو ذلك واضحا فى التوراة فى قصة الجبار شمشون ومحبوبته دليلة

والواقع أن ذهن برنابا لم يكن متجها نحو الملذات الحسية ، وكان يؤلمه حرمان نفسه من قدح خمر أكثر مما يؤلمه حرمانها من التمتع بحسناء ، وذلك لأنه كان يحب تعاطى الخمر فى أيام الصيف على أن يكون فى تعاطيها متوسطا معتدلا . وليس شك فى أن برنابا كان رجلا صالحا تقيا يخاف الله ويمجد العذراء مريم تمجيداً خاصا ويتخذها شفيعا له

وكان من عادته كلما دخل احدى الـكنائس ، أن يجثو أمام صورة العذراء ويرفع اليها فى حرارة هذه الصلاة :

« ياسيدتى ، تقبلى حياتى فى رعايتك الى أن يأذن الله بموتى ، ومتى قضيت متعينى بما فى الجنة من نعيم ! »

* * *

وفى ذات مساء ، بعد يوم عابس مطير ، بينما كان برنابا راجعا من السوق مطرق الرأس حزينا ، حاملا تحت إبطه كراته وسكاكينه فى سجادته البالية ، يبحث عن نزل خص للنوم فقط ولا يقدم فيه طعام عشاء ، أبصر فى طريقه أحد الرهبان فانحنى وحياه باحترام

ولما كان الرجلان يسيران فى اتجاه واحد ، أخذ يتجاذبان أطراف الحديث . فقال الراهب :

— أيها الرفيق ، ما بالك مرتديا هذا الثوب الاخضر . . أتـكون ذاهبا لتمثيل دور مجنون فى رواية دينية ؟

فاجاب برنابا قائلا :

— لا يا ابت ! انا من ترانى أمامك ادعى برنابا وحرفتى بهلوان وانها لتكون أجمل حرفة فى العالم لو كانت تدر على رزق كل يوم

فقال الراهب :

— ياصديقى برنابا تنبه لمـا تقول ، واعلم أن أجمل حرفة فى العالم هى أن تـكون راهبا ، فنحن نمجد الله والعذراء والقديسين ، وما حياة الراهب إلا انشودة دائمة يرفعها الى أعتاب الله

فقال برنابا :

— يا ابت ، اعترف اننى تكلمت كرجل جاهل ! ان حرفتك لا

يمكن أن تقاس بحرفتى ، ومهما يكن لى من فضل وأنا ارقص حاملا فوق أنفى قطعة نقود مثبتة فوق عصا ، فهذا الفضل لا يمكن أن يدانى فضلك انت . وانى لأود يا ابت أن أكون مثلك ، أن اقيم القداس كل يوم ولا سيما للعذراء مريم التى أكن لها فى قلبى أعظم اجلال وتقديس . ولو انى استطعت يا أبت أن احترف حرفتك وأصبح راهبا مثلك ، لما ترددت فى توديع فنى ، هذا الفن الذى أحبه والذى اشتهرت به فى ستمائة مدينة وقرية

فأثرت بساطة البهلوان فى نفس الراهب ، وكان رجلا ثاقب النظر ، فأيقن أن برنابا من عباد الله الصالحين وقال له :

اتبعنى يا صديقى برنابا . سأدخلك الدير الذى أعيش فيه ، فقد اصطفانى الله لهدايتك

وهكذا أصبح برنابا راهبا ، وأبصر فى الدير كيف يمجد الرهبان العذراء . فبعضهم كان يضع الرسائل عن فضائلها ، وبعضهم كان يرسم لها صوراً صغيرة بارزة دقيقة ، وآخرون كانوا يصورونها وحول رأسها هالة من نور وتحت قدميها أرواح الذين يبتهلون اليها راجين الشفاعة لهم عند الله كى يرحمهم ويغفر خطاياهم

وكان من الرهبان من يمجد العذراء برسمها فى شكل الزنبقة أو فى شكل القمر أو الشمس ، او فى صورة حديقة مسورة غناء . وكان منهم من ينحت لها تماثيل من حجر أو ينظم فيها قصائد الشعر تارة باللغة اللاتينية الفصحى وتارة بلغة الشعب الساذجة البسيطة الساحرة . . . وهكذا كان يفتن الرهبان فى تمجيد العذراء كل وفق الهام فنه وفطرته وتقاه

* * *

ولما شاهد برنابا هـذه المباريات الرائعة فى تمجيد العذراء ممثلة فى اعمال فنية بديعة الصنع ، عز عليـه ان يكون جاهلا ساذجا ، فكان يخاطب نفسه وهو يتجول بمفرده فى حديقة الدير الصغيرة قائلا :

— يا لشقائى . . ليس فى مقدورى ان اقتدى برفاقى فأمجد العذراء التى وهبتها قلبى بما هى أهل له من عظيم التقديس والتمجيد . واأسفاه انى لمخلوق خشن لا علم لى بأسرار هذه الفنون الغريبة ، وانى لعاجز يا سيدتى العذراء عن أن أرفع اليـك أمثال تلك الصلوات والخطب الدينية الشائقة ، وتلك الرسوم الفنية النادرة ، وتلك النصب المنحوتة فى دقة فاتنة ، وامثـال تلك القصائد الشعرية الرخيمة المنسجمة . وا أسفاه ! . . لا أملك شيئا ، لا أملك شيئا وا أسفاه ! . .

وكان برنابا يتبرم بحاله ، ويشكو الى القدر سوء طالعه ، ثم يستسلم للحزن العميق

وفى ذات مساء بينا كان الرهبان يقضون احدى فترات الراحة فى السمر البرىء ، طرق مسمع برنابا صوت احـدهم وهو يسرد حكاية راهب لا يعرف كيف يمجد العذراء الا بالصلاة القصيرة المشهورة التى وضعت خصيصا لها ، وكان هذا الراهب محتقراً لجهله ، وكان رفاقه يعيرونه بهذا الجهل ، ولـكنه عند ما وافته المنية ، انبثقت من فمه أربع زهرات ترمز الى الحروف الاربعة المؤلف منها اسم مريم ، وفى تلك اللحظة ، اعترف الـكل بكراماته وآمنوا بقداسته

هذه القصة احدثت ابلغ الاثر فى نفس برنابا ، فازداد اعجابه بطيبة العذراء ، ولـكن قصة وفاة ذلك الراهب القديس لم تـكن كافية لتعزيته ، وذلك لأن قلبـه كان يفيض اخلاصا ، ونفسه كانت تطمح لتمجيد العذراء تمجيداً يتفق وحبه العظيم لها

وظل يبحث عن الوسيلة المنشودة دون ان يجدها ، فكانت حياته سلسلة شقاء متصلة

غير انه وقد استفاق من نومه ذات صباح ، احس فرحا طارئا يملأ قلبه ، فهرع من فوره الى الهيكل ومكث فيه بمفرده ميقات ساعة ثم غادره وعاد اليه بعد الظهر أيضا

وارتاح برنابا إلى ما اهتدى اليه ، فكان يذهب كل يوم إلى الهيكل ساعة اقفاره من الرهبان ، ويمكث فيه جزءاً من الوقت الذى كان رفاقه يقضونه فى ممارسة مختلف الفنون والاعمال اليدوية

وزايل برنابا حزنه ولم يعد يتبرم بالحياة

ولكن مسلكه الغريب أثار فضول الرهبان ، فجعلوا يتساءلون : ما الذى يحمل برنابا على قضاء تلك الفترات الطويلة فى الهيكل ، والقيام بتلك الرياضة الروحية الدائمة ؟ . .

وكان من واجب رئيس الدير ان يقف على كل ما يتعلق بسلوك لرهبان ، فلفت نظره سلوك برنابا ، فعزم على مراقبة خلواته في الهيكل

وفى يوم من الايام ، بينما كان برنابا منفرداً فى الهيكل كعادته ، أقبل رئيس الدير مصحوبا باثنين من شيوخ الرهبان ، وجعلوا يرقبون من فرجات الباب ما يحدث داخل الهيكل

فأبصروا برنابا تجاه مذبح العذراء مريم ، ورأسه فى الارض وقدماه فى الهواء يلعب بكراته الست وسكاكينه الاثنتى عشرة . . .

كان يمجد العذراء على طريقته ، ويرفع اليها من آيات نبوغه ما صادف من الناس أعظم اعجاب وتقدير

واستهول كل من الراهبين العجوزين ما وقعت عليه عيناهما ، ولم

يفهما ان هذا الرجل الساذج انما يقدم الآن أروع ما عنده للعذراء مريم ، فاستنكرا مسلكه وقالا ان هذا هو الكفر بعينه !

غير ان رئيس الدير كان يعرف ان برنابا هو انسان سليم النية بسيط الروح ، فاعتقد انه ربما قد أصيب بمس من جنون ، فتنحى وأشار الى الراهبين بان يتبعاه ، ولكنهم فى نفس اللحظة التي هموا فيها بالانصراف ، أبصروا على دهش منهم ، العذراء مريم ، تهبط على مهل درجات المذبح ، وتتقدم وترفع طرف ردائها الازرق وتمسح به قطرات العرق المتساقطة من جبين صفيها البهلوان ! . .

وعندئذ استضاءت بصيرة رئيس الدير ، فخر على الارض جاثيا ، ومجد الخالق سبحانه وهو يغمغم قائلا :

— طوبى للبسطاء لأنهم يرون الله . .

فأردف الراهبان العجوزان وهما يقبلان الأرض قائلين :

— آمين ! . . .

فهرس

صفحة

